



جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

بواعث التجديد التربوي ومركزاته لدى الشيخ محمد رشيد رضا

إعداد الدكتور

محمود بطل محمد أحمد

قسم الثقافة الإسلامية - كلية الدعوة الإسلامية -
جامعة الأزهر - مصر

بواعث التجديد التربوي ومركزاته لدى الشيخ محمد رشيد رضا

محمود بطل محمد أحمد

قسم الثقافة الإسلامية - كلية الدعوة الإسلامية - جامعة الأزهر - مصر

البريد الإلكتروني: Mahmoudahmed.13 @azhar.edu.eg

ملخص البحث:

تأتي قضية التربية بأبعادها المستوعبة للوجود الإنساني لتكون إحدى أعظم القضايا التي سبرت أنظار المجددين أغوارها، ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأنه لم يوجد مجدد من مجددي الإسلام المتبصرين إلا وكان له إسهامه في بعد من أبعاد التربية أو قضية من قضاياها؛ ذلك إذا فهمنا التربية بمعناها الواسع المنبثق من المنهجية الإسلامية التي تتحى المنحى التكاملي بين أنماط المعرفة الإنسانية.

ويأتي الشيخ محمد رشيد رضا ليكون واحداً من أبرز هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم تجديد ما اندرس من معالم الدين، والتنبه على آلية الرجوع إلى عهد التمثل المبتغى دون التكرار للخصوصية الزمنية التي تعيشها الأمة، من هنا أتى هذا البحث ليناقش مرتكزات التجديد التربوي لديه، وقد خلص البحث إلى العديد من النتائج من أبرزها أن بواعث التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا قد تنوعت، وكان من أظهرها الحاجة الإنسانية الملحة للمنهج التربوي الإسلامي الذي يحقق المواءمة مع المكونات المختلفة للإنسان، وإكمال مسيرة الفكر

التربوي الإسلامي، تلك المسيرة التي أنتجت تراثا تربويا مثل علامة فارقة في الفكر التربوي الإنساني.

كما أظهر البحث كيف كان التجديد التربوي لرشيد رضا منطلقا من المنهج الإسلامي وتأصيلاته المبنوثة في دواوين الوحي الإلهي من الكتاب والسنة، ودور الملكة النقدية ومحوريتها في المشروع التربوي التجديدي لرشيد رضا.

وأظهر البحث كذلك أنه في الوقت الذي انطلق فيه رشيد رضا من الوحي الإلهي فإنه لم يغلق الباب أمام المعارف الإنسانية لأن الانفتاح المنضبط على هذه المعارف مما دعا إليه الوحي الإلهي.

الكلمات المفتاحية: رشيد رضا - التجديد - التربية - مرتكزات.



The Motives and Foundations of Educational Renewal

I have the Sheikh Mohammed Rashid Reda

Mahmoud Batal Mohamed Ahmed

Department of Islamic Culture - College of Islamic Da'wa -
Al-Azhar University - Egypt.

E Mail: Mahmoudahmed.13@azhar.edu.eg

Abstract :

The issue of education comes in its comprehensible dimensions of human existence to be one of the greatest issues that the innovators have explored its depths, and we would not be exaggerating if we say that there has not been a thoughtful renewer of Islam unless he had his contribution to a dimension of education or one of its issues. That is if we understand education in its broad sense that emanates from the Islamic methodology that takes an integrative approach between the types of human knowledge. Sheikh Muhammad Rashid Rida comes to be one of the most prominent of those who have taken upon themselves to renew what has been studied of the features of religion, and to warn about the mechanism of returning to the desired era of assimilation without denying the temporal specificity that the nation lives. The research revealed many results, the most prominent of which is that the motives for educational renewal of Muhammad Rashid Rida have varied, and one of them was demonstrated by the urgent human need for the Islamic educational curriculum that achieves alignment with the different components of the human being And to complete the march of Islamic educational thought, that march that

produced an educational heritage as a milestone in human educational thought.

Among the results of the research is also that Rashid Rida did not deal with the historical component as just a timeframe for events. Rather, he represented a pillar in the accumulation of educational experiences, and an original tributary of practical education, and that Rashid Rida's vision of the issue of education and its mechanisms was not far from his overall view of the nation. The research also showed that while Rashid Rida started from the divine revelation, he did not close the door to human knowledge because the controlled openness to this knowledge is what the divine revelation called for.

Keywords: Rashid Rida - innovation - education – foundations.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد، ،
فلقد كان من خصائص البنية العقلية التي أرادها الإسلام للشخصية المسلمة
أنها تلك العقلية التي لا تتوقف عن الجولان في مناحي الفكر وطرح الأسئلة
المبدعة التي تشكل تفاعلاً مع الحدث بكل تداعياته.
إن هذه العقلية حين نمت واستهدت بحقائق الوحي الإلهي استطاعت أن تبرز
مضامين العالمية لهذه الرسالة الخاتمة موضوعاً وزماناً ومكاناً.
إنها استطاعت ذلك بفهم مقاصدي لهذه الرسالة، وقدرة على التفريق بين
أصولها وفروعها، ورؤية متبصرة لمناحي الاختلاف بين كل عصر وعصر،
ووعي بخطوط التمايز بين كل بيئة وأخرى، فأصلت الأصول وقعدت القواعد،
وفرعت الفروع، وبينت المشكل، وأوضحت المبهم.
إن هذه الوظائف التي قامت بها العقلية الإسلامية المتبصرة هي ما يمكن أن
نسميه بوظائف التجديد، تلك الوظائف التي اقتضت حكمة الله تعالى ألا تحرم
الأمة من قائم بها رغم امتداد أزمانها، واشتداد خطوبها، وتعقد تحدياتها.
نعم لم تخل الأمة من مجددين مهتدين بهدي هذه الرسالة منطلقين من حقائقها
الكبرى حول الإنسان والكون والحياة.
إنهم لم يبينوا مسائل من مسائل الدين فحسب، ولم يشرحوا نصاً من
نصوصه فحسب، بل إنهم كذلك جددوا المعرفة الإنسانية، وبرهنوا على اتساق
مصادر هذه المعرفة من وحي وحس وعقل.
ومن الطبيعي أن يكون للقضايا التي تمس الإنسان مسا جوهرية صدارة في
تلك المشاريع التجديدية إيماناً بأن المقصد من هذه الرسالة هداية هذا الإنسان
هداية شاملة مرتبطة بحقيقة وجوده في هذه الحياة.

ومن هنا تأتي قضية التربية بأبعادها المستوعبة للوجود الإنساني لتكون إحدى أعظم القضايا التي سبرت أنظار المجددين أغوارها.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأنه لم يوجد مجدد من مجددي الإسلام المتبصرين إلا وكان له إسهامه في بعد من أبعاد التربية أو قضية من قضاياها؛ ذلك إذا فهمنا التربية بمعناها الواسع المنبثق من المنهجية الإسلامية التي تتحى المنحى التكاملي بين أنماط المعرفة الإنسانية.

ويأتي الشيخ: محمد رشيد رضا ليكون واحداً من أبرز هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم تجديد ما اندرس من معالم الدين، والتنبيه على آلية الرجوع إلى عهد التمثل المبتغى دون التكرار للخصوصية الزمنية التي تعيشها الأمة. ويأتي التجديد التربوي ليمثل إحدى أبرز مجالات المشروع التجديدي لرشيد رضا، مما يستوجب النظر والتأمل والبحث في بواعث هذا التجديد ومرتكزاته مما يكشف حلقة من حلقات الفكر التربوي الإسلامي.

من هنا أتى هذا البحث تحت عنوان (بواعث التجديد التربوي ومرتكزاته لدى الشيخ: محمد رشيد رضا) لأحاول من خلاله تحقيق هذا المطلب العلمي.

مشكلة البحث

لقد اتسم المشروع التجديدي الذي قام به رشيد رضا بتشعب مفرداته، وانتشار آثاره، وإزاء هذا التعدد والتنوع قد يحدث التخبط في آليات البحث والتتبع لهذا المشروع، فقد يُظن في مفردة ما من المفردات أنها المفردة الحاكمة مع أنها عند التأمل لا تزيد عن كونها جزئية من الجزئيات لا تصلح أن تُصنف في إطار القاعدة الكلية، ولا تتوقف خطورة هذا اللبس في التكرار للوزن النسبي الذي تستحقه الجزئيات، بل الأخطر انتقاد التوصل إلى المعيار الحقيقي لهذا المشروع، ومن ثمَّ إمكانية الاستفادة منه استفادة حقيقية، بل وعقد المقارنة المتبصرة بينه وبين سواه من المشاريع التجديدية.

من أجل هذا نرى أن فكرة التربية تستأهل بجدارة أن تكون هي الركيزة الأساسية للمشروع التجديدي لرشيد رضا.

ولا شك أن هناك إشكاليات فرعية كثيرة تكتنف تلك المحاولة، ومن أبرزها الإشكاليتان التاليتان:

الإشكالية الأولى: إشكالية البحث في أيّ من القضايا المرتبطة ارتباطاً جوهرياً بهذا الكائن المعقّد خلقاً وتكويناً - أعني الإنسان - والذي تراكمت حوله الرؤى والأفكار والفلسفات محاولةً فك رموزه، وسبر أغواره، والنفوذ إلى حقيقة العلاقة بين مكوناته، ولا شك أن قضية التربية هي إحدى أبرز القضايا الإنسانية.

الإشكالية الثانية: إشكالية العلاقة بين الفكرة المجردة والفكرة المجسدة، والتي تبرز دائماً في معالجة الشخصيات، فالفكرة تأخذ أصلاتها وبكارتها من ناحية كلما كانت مستمدةً تلقائياً من النص المؤطر لها، لكن في الوقت ذاته تحتاج تلك الفكرة إلى مُعبّر عنها، وصانع لها، ومُوصل بين مقاصدها من ناحية ومعطيات الواقع المتجدد من ناحية أخرى، وهذا كله يجعل منها فكرة متجسدة، فقضية التربية لا شك أنها مؤطرة في ثنايا الأصول الإسلامية من القرآن والسنة، ولا شك كذلك أن إبراز هذا التأصيل، ورسم الخطوط الرأسية والأفقية لإنزال تجلياتها على الواقع الإنساني يحتاج إلى فهم متجدد، ومن هنا تأتي أهمية البحث في فكر المجددين واتجاهاتهم.

إن مكن هذه الإشكالية أنه كما ينبغي أن تبقى الفكرة المجردة بعيدةً عن النظرات الشخصية الضيقة وتأثيرات المكان المحدودة يجب كذلك الوعي بما تجسّد من تلك الفكرة، وقرأته قراءةً مستوعبةً؛ لأنه وعيٌ يشكل المخزون الحيوي لتلك الأفكار المجردة.

فرضية البحث

يفترض هذا البحث أنه كانت هناك بواعث للتجديد التربوي لدى رشيد رضا، وأن هذه البواعث كانت متنوعة ما بين بواعث ذاتية وأخرى خارجية، كما يفترض كذلك أنه كانت هناك مرتكزات عدة للتجديد التربوي لدى رشيد رضا استطاع من خلالها أن يكون مؤثراً في مسيرة الفكر التربوي الإسلامي.

أهداف البحث:

- ١- الكشف عن محورية التجديد التربوي في المشروع الفكري لرشيد رضا.
- ٢- بيان أبرز البواعث التي دفعت رشيد رضا لوضع التجديد التربوي هذا الموضوع من مشروعه التجديدي العام.
- ٣- بيان الصلة بين التجديد التربوي لرشيد رضا ومسيرة الفكر التربوي الإسلامي.
- ٤- الكشف عن أبرز مرتكزات التجديد التربوي لرشيد رضا.
- ٥- الرد على الادعاءات التي تتال من المنهج التربوي الإسلامي وأهليته الموضوعية والزمانية، والمكانية.

منهج البحث

تتعدد مناهج البحث العلمي، وتتشعب أنماطها تبعاً لميادين البحوث والدراسات، وبالنظر إلى مجال هذا البحث وجدت أن أنسب المناهج له هي: **المنهج التحليلي**: والذي يقوم على تحليل عدد من الظواهر أو الأحداث تحليلًا علميًا يسير على استخراج النتائج من مقدماتها. وكذلك **المنهج الإستردادي أو المنهج التاريخي**: وهو الذي يُعنى باسترداد الماضي تبعاً لما تركه من آثار أياً كان نوع هذه الآثار.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من تمهيد، ومبحثين على النحو الآتي:

التمهيد: وبه نقطتان:

أولاً: مفهوم التجديد التربوي.

ثانياً: تعريف موجزٌ بمحمد رشيد رضا.

المبحث الأول: بواعث التجديد التربوي لدى الشيخ: محمد رشيد رضا

- المطلب الأول: الحاجة الإنسانية للمنهج التربوي الإسلامي.
- المطلب الثاني: علاج انحسار التكوين التربوي للشخصية المسلمة.
- المطلب الثالث: إكمال مسيرة البحث في الإصلاح التربوي الإسلامي.

المبحث الثاني: مرتكزات التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا

- المطلب الأول: الانطلاق من تدبر الوحي الإلهي.
- المطلب الثاني: تبني بنية مفاهيمية واضحة.
- المطلب الثالث: تبني النظرة القاعدية.
- المطلب الرابع: إعطاء الملكة النقدية محوريتها في التجديد التربوي.
- المطلب الخامس: التأكيد على منحى التربية العملية.
- المطلب السادس: ضرورة المكون التاريخي في تشكيل الرؤية التربوية.



التَّجْدِيدُ

النقطة الأولى: مفهوم التجديد التربوي

لا يخفى أن (التجديد التربوي) مُركَّبٌ وصفيٌّ، وطبيعة المركب أن معناه الكلي يتوقف على تصور جزئيه؛ لذا كان لزاماً علينا تصور كلٍّ من كلمتي (التجديد) و(التربوي) لنتمكن بعد ذلك من تصور المعنى الكلي لهذا المركب.

أولاً: مفهوم التجديد

التجديد في اللغة

إن أول ما نستوضح به أي مفهوم أن نرجع إلى الدواوين التي حفظت لنا كلام العرب واستعمالهم للألفاظ؛ لأن ذلك يفتح أعيننا على أبعاد هذا المفهوم فيجعلنا أكثر إدراكاً لمعناه، وأكثر وعياً بأبعاده.

وحين نرجع إلى المعاجم اللغوية نجد أن معنى التجديد في اللغة يدور حول إعادته الشيء إلى سيرته الأولى.

جاء في لسان العرب: "الجِدَّةُ: نَقِيضُ البَلْبِي؛ يُقَالُ: شَيْءٌ جَدِيدٌ، وَالْجَمْعُ أَجْدَةٌ وَجُدْدٌ وَجُدْدٌ... جَدَّ الثوبُ وَالشَّيْءُ يَجْدُّ، بِالْكَسْرِ، صَارَ جَدِيدًا، وَهُوَ نَقِيضُ الخَلْقِ"^(١).

وجاء أيضاً: "تَجَدَّدَ الشَّيْءُ: صَارَ جَدِيدًا. وَأَجَدَّهُ وَجَدَّدَهُ وَاسْتَجَدَّهُ أَي صَيَّرَهُ جَدِيدًا"^(٢).

وجاء كذلك: "يُقَالُ لِلأَرْضِ المُسْتَوِيَةِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا رَمْلٌ وَلَا اخْتِلَافٌ: جَدْدٌ"^(٣).

(١) لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ج ٣ ص ١٠٩، دار صادر، بيروت ط ١.

(٢) المرجع السابق، ج ٣ ص ١١١.

(٣) المرجع السابق، ج ٣ ص ١١١.

وجاء في المفردات: "جددت الثوب: إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد: أصله المقطوع، ثم جُعِلَ لكل ما أُحدث إنشاؤه، قال تعالى: (بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)^(١)، إشارة إلى النشأة الثانية، وقُوبِلَ الجديد بالخلق لما كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب، ومنه قيل لليل والنهار: الجَدِيدَانِ وَالْأَجْدَانِ."^(٢)

إن هذه النقول اللغوية تبين لنا عدة أمور وهي:

- ١- أن التجديد ليس معناه إزالة القديم بالكلية، وإنما إرجاعه إلى سيرته الأولى، وهذا يعطينا دلالة على أن من يحمل التجديد اسماً، ويتخذ من نفس كل موروث مضموناً هو أبعد ما يكون عن التجديد حتى بمعناه اللغوي المجرد.
- ٢- أن التجديد مرتبط من حيث الغاية بالإصلاح كما رأينا أن تجديد الثوب معناه قطعه على جهة الإصلاح، وهذا يعطينا دلالة على أن الثمرة النهائية لحركة التجديد لا يمكن أن تنفك عن معنى الإصلاح.
- ٣- أن التجديد يكون في الأمور المادية، ويكون كذلك في الأمور المعنوية.

التجديد في الاصطلاح

أما عن معنى التجديد في اصطلاح الشرع فقد كثرت التعريفات له، ومنها أنه: "إحياء ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن وخفي من العلوم الدينية الظاهرة والباطنة."^(٣)

(١) سورة (ق) آية رقم (١٥).

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ١٨٨ (المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت ط١ (١٤١٢هـ)).

(٣) فيض القدير، ج ١ ص ٩ (فيض القدير، شرح الجامع الصغير، عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ط، (١٣٥٦هـ)).

إن علاقة هذا التعريف بالمعنى اللغوي للتجديد ظاهر لأن القيام بهذه الأمور هو من أعظم السبل لإرجاع أمر الدين إلى صورته النقية الأولى لأن اندراس بعض من أحكامه، وذهاب بعض من معالمه، وخفاء بعض من دلائله يجعل من صورته صورة مختلة.

وقد نحا البعض في إيضاح مفهوم التجديد منحى آخر وهو بيان ما ليس تجديداً على الحقيقة ليتضح من خلال ذلك المراد بالتجديد على الحقيقة على حد قول بعضهم: وبضدها تتميز الأشياء.

يقول الشيخ الغزالي: "لم يفهم أحد من العلماء الأولين أو الآخرين أن تجديد الدين يعني تسوية البدع، ومطابقة الرغبات، وإتاحة العبث بالنصوص والأصول لكل متهجم غير أن عصابة من الناس درجت في هذه الأيام على إثارة لغط غريب حول إمكان ما يسمونه تطوير الدين وجعل أحكامه ملائمة للعصر الحديث."^(١)

ومن التعريفات ما أشار إلى أن التجديد ليس مجرد إزالة ما ليس من الدين إنما هو كذلك الانطلاق من أصوله ومبادئه.

"التجديد في نظر الفكر الإسلامي ليس رفضاً للأوضاع المتردية أو القيم البالية أو نزع التقاليد التي عفا عليها الزمن فحسب، وإنما هو صناعة المستقبل بإرادة الإنسان وفعله ونظرته للتحدي والإنجاز، وبلورة قيم إنسانية تحقق حضوره الأمتل بالاكشاف والإبداع لصالحه ولصالح المجتمع والعالم أجمع."^(٢)

(١) كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي ص ١٨٣.

(٢) الإسلام والتجديد، زكي الميلاد، ص ٢٦٥، نقلاً عن المدرسة التجديدية في الفكر الإسلامي وأثرها على التنمية السياسية. أسعد سمير حلبي، ص ٤٠، رسالة ماجستير جامعة النجاح الوطنية (٢٠١٢م).

وما دنا في سياق بحث عن التجديد التربوي لرشيد رضا فيجدر بنا ذكر تعريفه لمفهوم التجديد وهو: تجديد هدايته، وبيان حقيقته وأحقيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع والغلو فيه أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق وسنن الاجتماع والعمران في شريعته.^(١)

لقد وضعنا هذا التعريف أمام الأبعاد المتنوعة لمفهوم التجديد، وهي:

- البعد المرتبط بالهداية.
- البعد المرتبط بحقيقة الدين وجدارة هدايته للحياة.
- البعد المرتبط بتخليصه مما يعلق به.
- البعد المرتبط بمراعاته للواقع الإنساني.

نظرة على هذه التعريفات

بالرغم من وجود بعض الاختلافات في هذه التعريفات السابقة إلا أنها تؤكد على حقيقة واحدة تعد جوهر مفهوم التجديد وهي أن التجديد يعبر عن حالة من الحركة والفعالية تقوم بها فئة خاصة من علماء هذه الرسالة الخاتمة قاصدين من خلالها إبقاء معالمها، وبيان جدارتها بقيادة الحياة، ويمكن أن نفهم حالة الجدل التي تنيرها قضية التجديد من خلال وعينا بهذه الحقيقة لأنه طالما أن هناك حركة وفعالية تجاه أمر ما طالما كانت هناك حالة من الجدل في طبيعة هذه الحركة، ثم في مداها وحدودها، ثم فيمن هو أهل للقيام بها.

(١) مجلة المنار ج ٣٠ ص ١١٥ (عدد صفر ١٣٤٨هـ - يوليو ١٩٢٩م) مقالة بعنوان

(مسألة التجديد والتجدد)

ثانياً: مفهوم التربية

التربية في اللغة:

عند مطالعة دواوين اللغة نجد أن أصل كلمة (تربية) الفعل (ربى)، وأن معناه اللغوي يدور حول الزيادة والنماء.

جاء في لسان العرب: "ربا الشيء يربو ربوا ورباء: زاد ونما، وأربيته أنميته." (١)

وجاء في معجم مقاييس اللغة: نحو من هذا "ربى، الرأء والباء والحرف المعتل وكذلك المهموز يدل على أصل واحد، وهو الزيادة والعلو تقول عن ذلك: ربا الشيء يربو إذا زاد، وربا الرابية يربوها، إذا علاها." (٢) ولا شك أن المعنى الاصطلاحي للتربية قد تجاوز الدائرة اللغوية وإن لم تنقطع الصلة بينهما كما سنرى.

التربية في الاصطلاح

تعددت تعريفات التربية تبعاً للمنطلقات الفكرية التي خرجت من ثناياها؛ لذا نرى تعريف ستورات مل ينصب بالأساس على النزعة الإنسانية وهو: كل ما فعله نحن من أجل أنفسنا، وكل ما يفعله الآخرون من أجلنا بهدف الوصول بالإنسان إلى طبيعته الإنسانية.

ويأتي تعريف جون ديوي لينصب على النظرة الأحادية للحياة، فالتربية عنده هي: الإعداد للحياة.

(١) لسان العرب، ابن منظور ج ٤ ص ٣٠٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تحقيق: عبد لسلام محمد هارون، ج ٢ ص ٤٨٣، دار الفكر، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

أما دور كايم فغلب عليه تخصصه الاجتماعي؛ لذا عرّف التربية بأنها "العمل الذي تحدّثه الأجيال الراشدة في الأجيال النامية لمساعدتها في الحياة الاجتماعية".^(١)

وجاء في معجم المصطلحات الاجتماعية أن التربية (Education) هي: نظام اجتماعي يحدد الأثر الفعال للأسرة والمدرسة في تنمية النشء من النواحي الجسمية والعقلية والأخلاقية حتى يمكنه أن يحيا حياة سوية في البيئة التي يعيش فيها، والتربية عملية عامة لتكيف الفرد ليتمشى ويتلاءم مع تيار الحضارة الذي يعيش فيه.^(٢)

وجاءت بعض تعريفات التربية لتأخذ في حسابها الهدف الذي تسعى إليه كل آليات التربية وهو الوصول للكمال الإنساني فعرفت التربية تبعاً لذلك بأنها: "العملية التي تؤمن للإنسان التكيف الإيجابي مع الظروف الداخلية والخارجية بصورة تمكنه من الوصول إلى درجة الكمال".

ومن التعريفات التي نحت هذا المنحى كذلك تعريفها بأنها: "مجموع الأفعال والأداءات والتأثيرات التي تستهدف نمو الفرد نمواً متكاملًا من جميع جوانب شخصيته بشكل يسير به نحو كمال وظائفه كمالًا إيجابيًا مع محيطه وذاته".^(٣)

ونحت بعض التعريفات منحى تحميل الإنسان المتعلم مهمة التربية الذاتية فعرفت التربية تبعاً لذلك بأنها: "العمليات التي يتفاعل بها الإنسان المتعلم من أجل النهوض بقواه، أي إنها عملية تطبيع مع الجماعة وتعايش مع الثقافة".^(٤)

(١) مدخل إلى علم التربية، د. عبد السلام الجعافرة وآخرون، ص ٢٣، دار الكتاب

الجامعي، العين: الإمارات العربية المتحدة ط ١ (١٤٣٥ - ٢٠١٤م).

(٢) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، إنجليزي، عربي، محمد الجوهري، ص ١٢٧، المركز القومي للنشر، بدون..

(٣) مدخل إلى علم التربية، د. عبد السلام الجعافرة وآخرون، ص ٢٣، (مرجع سابق)

(٤) أصول التربية، د. عبد الغني محمد إسماعيل العمراني، ص ١٨، دار الفكر العربي،

(١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).

وبالمقابل لهذا المنحى وجدنا بعض التعريفات تركز على دور المجتمع وقيمه وبيان العلاقة بين كل مجتمع ونمط التربية السائدة فيه، فعُرِّفت التربية تبعاً لذلك بأنها: "العملية المقصودة أو غير المقصودة التي يحددها المجتمع حسب ثقافته لتنشئة الأجيال الجديدة بما يجعلهم على علم ووعي بوظائفهم في المجتمع".^(١)

بعد تعرفنا على مفهومي التجديد والتربية يمكننا القول بأن التجديد التربوي هو: إحياء ما اندرس من معالم الدين فيما يتعلق بتزكية الإنسان، وتجديد هدايته فيما يرقى الإنسان قلباً وعقلاً وجسداً.

النقطة الثانية:

تعريفٌ مُوجزٌ بالشيخ: محمد رشيد رضا^(٢)

نسبه

هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة.

مولده:

وُلد محمد رشيد رضا في بلدة القلمون إحدى أعمال طرابلس الشام على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وهي تبعد عن مدينة طرابلس حوالي ثلاثة

(١) مدخل إلى علم التربية، د. عبد السلام الجعافرة وآخرون، ص ٢٣.

(٢) يُنظر في هذه الترجمة المراجع التالية: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي، ج ٦ ص ١٢٦، دار العلم للملايين، ط ١٥ (٢٠٠٢م)، و: السيد رشيد رضا أو إحياء أربعين سنة، شكيب أرسلان، مكتبة ابن زيدون، ط ١ (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م)، و: رشيد رضا الإمام المجاهد، د. إبراهيم أحمد العدوي، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة، و تاريخ الأستاذ الإمام: محمد رشيد رضا، دار الفضيلة، ط ٢ (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).

أميال، وذلك في (٢٧ جمادى الأولى ١٢٨٢ هـ) الموافق (٢٣ سبتمبر ١٨٦٥م)

نشأته:

نشأ رشيد رضا في بيت معروف بالفضل والعلم، وتعلّم في كتاب القرية قراءة القرآن والخط وقواعد الحساب، ثم التحق بالمدرسة الرشدية بطرابلس، وهي مدرسة ابتدائية درس فيها بعضاً من العلوم كالنحو والصرف ومبادئ الحساب والجغرافيا، ثم التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية والتي كانت أرقى حالاً من المدرسة الرشدية.

شيوخه:

تتلمذ الشيخ: رشيد رضا على كثيرين من أفاض العلم بالشام، لكن أكثرهم أثراً في مسيرته العلمية كان الشيخ: حسين الجسر؛ حيث تخرج عليه في المعقول والمنقول.

ومن أساتذته الذين أخذ عنهم الحديث وفقه الشافعية العلامة الشيخ: محمود نشابة، والذي أقام في الأزهر زهاء الثلاثين سنة. ومن العلماء الذين أثروا التكوين العلمي لرشيد رضا الشيخ: محمد القاوقجي.

اشتغاله بالتعليم في الشام

اشتغل محمد رشيد رضا بالتعليم في بلده القلمون، وكان يغشى العوام في مجالسهم فيعلمهم ويفقههم في أمر دينهم، ويحاول جاهداً تبسيط ما تلقاه من المعارف على يد أساتذته خاصة ما يتعلق بالعقيدة والفقهاء؛ حيث كانت الكتب المؤلفة فيهما آنذاك كتباً خاصة بطلبة العلم، ويصعب على العوام فهمها مع حاجتهم الشديدة إلى ما فيها.

التقاؤه بالأستاذ الإمام بالشام

أقام الإمام محمد عبده في بيروت خمس سنوات، والتقى به رشيد رضا سنة (١٨٩٤م).

العروة الوثقى وبداية الطريق

ما إن بدأت الأعداد الأولى من جريدة العروة الوثقى تظهر في العالم الإسلامي حتى أحدثت دويًا هائلًا في مجرى الحياة الفكرية التي طالت رقتها وعمَّ ركادها، وكان من بين أولئك الذين كادت أن تنشأهم نشأة أخرى رشيد رضا.

وبالرغم من قصر المدة التي صدرت فيها هذه الجريدة حيث لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددًا، وكان العدد الأول منها قد صدر في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ - ١٣ مارس (١٨٨٤م)، وآخرها صدر بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة (١٣٠١هـ) ١٧ أكتوبر سنة (١٨٨٤م)، بالرغم من قصر هذه المدة إلا أنها غيرت من خارطة الفكرية والإصلاحية لرشيد رضا، وأعدت رسم معالمها، وأضحى الإصلاح العام هو المبتغى الأول من توجهاته.

رحلته إلى مصر:

لئن كانت حياة رشيد رضا ببلده الشام قد شهدت نبوغًا ملحوظًا ونشاطًا عامرًا بالتعلم والتعليم والكتابة والخطابة إلا أن رحلته إلى مصر كانت علامة فارقة ومرحلة جديدة تغيرت معها معالم الشخصية الرشيدية، وأضحت شخصية عالمية تستأهل أن تأخذ مكانًا في خارطة الفكر الإسلامي الحديث، ولا شك أن علاقة رشيد رضا بأستاذه محمد عبده كانت هي النقطة المركزية في إحداث هذا التغيير؛ حيث تعمقت التلمذة للأستاذ الإمام، وأضحى رشيد رضا التلميذ الأول له.

انطلاقة المنار:

لئن كانت الصحافة تشكل إحدى مسارات النتاج الفكري لدى مفكري العصر الحديث فإنها لم تكن هكذا فحسب لرشيد رضا، بل مثَّلت المحك الحقيقي لنتاجه؛ لذا فمِنذ انطلقت مجلة المنار إلى موت رشيد رضا كانت هذه المجلة ينبوع فكره الصافي، وترجمة مشروعه الفكري ألقى فيها بكل تأملاته، وجعلها موطنًا لكافة إبداعاته، فهي بحق مستودع فكره، وخزانة تجديده، وقد صدر العدد الأول من مجلة المنار في الثاني والعشرين من شوال سنة ١٣١٥هـ، وكان آخر جزء منها الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين في ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٤هـ)

مؤلفاته: ترك رشيد رضا ثروة من المؤلفات التي طاف من خلالها المجالات الفكرية المتنوعة، والتي تنوع أسلوبه فيها ما بين تأصيل ونقد وطرح للرؤى، ومن أبرز هذه المؤلفات:

- ١- تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار (إلى الآية رقم ١٠١ من سورة يوسف (عليه السلام))
- ٢- تاريخ الأستاذ الإمام في ثلاث مجلدات.
- ٣- الوحي المحمدي.
- ٤- نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الإسلام).
- ٥- ترجمة القرآن وما فيها من الماسد.
- ٦- الوحدة الإسلامية.
- ٧- الخلافة أو الإمامة العظمى.
- ٨- المسلمون والحجاز.
- ٩- المسلمون والقط.

١٠- مناسك الحج: أحكامه وحكمه. ١١- رسالة في الصلب والفداء.
وفاته: بعد حياة حافلة بالعلم والدرس والعطاء والبذل تُوفِّي الشيخ: رشيد
رضا أثناء عودته من السويس في منتصف الساعة الثانية بعد ظهر الخميس يوم
الثالث والعشرين من جمادى الأولى الموافق الثاني والعشرين من شهر أغسطس
سنة (١٩٣٥م)، ودُفِن في قرافة المجاورين بجوار قبر أستاذه الإمام محمد
عبد.



المبحث الأول

بواعث التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا

المطلب الأول

الحاجة الإنسانية للمنهج التربوي الإسلامي

إذا كان رشيد رضا قد وصف العصر الذي نشأ فيه أستاذه بأنه "عصر من العصور القائمة، كل شيء به ممض مؤلم للنفوس الحرة والفطر الصادقة. الأمم الإسلامية تتحدر علمياً واجتماعياً إلى أحط الدرجات، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس."^(١)

إذا كان هذا وصفا لعصر محمد عبده فلا شك أن السنوات التي قضاها رشيد رضا بعد أستاذه شهدت تغيراً كبيراً في الرؤى والفلسفات العالمية. حقاً لم يكن الزمن الذي عاش فيه رشيد رضا أغلب عمره - وهو القرن العشرون - مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنساني الممتد على هذه الأرض، بل صبغته أحداثه المتوالية والمتشعبة بصبغة خاصة تغير فيها مجرى الوجود الإنساني.

لقد كان القرن العشرون قرن الأحداث الكبرى في التاريخ الإنساني المعاصر إن لم يكن في تاريخه المطلق، ويعطينا هذه الدلالة المفكر مالك بن نبي حين اختار أن يتحدث عن دور المسلم في نهاية هذا القرن، فقال: لماذا أفردنا وتعمدنا أفراد فترة معينة من هذا القرن؟

أولاً: لطبيعة القرن العشرين التي يتميز بها عن القرون الأخرى كلها، لأنه القرن الذي تحققت فيه تغيرات جذرية، بدت وكأنها ترسم للإنسانية نقطة

(١) تاريخ الأستاذ الإمام: محمد رشيد رضا ص ٣٨٥ (مرجع سابق).

اللاجوع على محور الزمن، فهو القرن الذي هبَّت فيه أكبر عواصف التاريخ على مصير الإنسانية.

ثانياً: لأنه القرن الذي سجَّل الأحداث الكبرى، سواء في مجال العلم، أو في المجال النفسي، أو في المجال الأخلاقي والديني، ففي كل هذه المجالات هبَّت عواصف كبرى يبدو أنها غيرت معالم الطريق.^(١)

والعواصف التي أشار إليها مالك بن نبي طالت القضايا الكبرى مثل قضية الدين حيث ظهرت أكبر حركة إلهادية في التاريخ الإنساني لم يكن الإلحاد فيها مجرد نزعة من النزعات الإنسانية الطارئة، بل أضحت مذهباً ودولة، وقضية التعامل مع الطبيعة واكتشاف أسرارها؛ حيث إن "ما حققه الإنسان في القرن العشرين من اكتشافات علمية تجاوز كل ما حققه منذ بداية التقويم الميلادي."^(٢)

ولم يكن هذا المستوى غير المسبوق في التعامل مع الطبيعة مجرد طفرة من طفرات الحياة العلمية وانعكاساتها التطبيقية، بل كان في الحقيقة حدثاً إنسانياً ترك آثاراً تربوية محورية بكل المقاييس، فنحن "مهما صادرننا على الأهمية الكبرى والمحورية للعلم القديم، وأوليناه ما يستحقه من عناية، فلا بد من الاعتراف بأن العلم الحديث لم يكن مجرد بوابة كبرى انفتحت لتتطرق منها ظاهرة العلم انطلاقة عظمى، ويتسارع تقدمها معدلات لا عهد للبشر بها من قبل، بل كان العلم الحديث أيضاً من زاوية العقل، ومن زاوية الواقع على السواء مستوى جديداً ومغايراً من مستويات وجود الإنسان في هذا الكون."^(٣)

(١) دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، مالك بن نبي، ص ١٢، دار الفكر، دمشق سورية، ط ١ (١٤١٢هـ) - (١٩٩١م).

(٢) أهم اختراعات واكتشافات القرن العشرين، د. حاتم صدقي، ص ١٢٣، المكتبة الأكاديمية (٢٠٠٧م).

(٣) فلسفة العلم في القرن العشرين، د. يمني طريف الخولي، ص ٥٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٩م).

لكن هل سار هذا التطور كله في مسار التزكية الإنسانية ؟

هل حقق مقتضيات التربية المنشودة ؟

الحقيقة أن هذا التقدم العلمي والمعرفي قد سار في كثير من خطواته بعيداً عن مسار التزكية الإنسانية؛ حيث "أصبحت التكنولوجيا هي العربة التي تقود الحصان، فإن الإنسان لسوء الحظ قد طور قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة، بل أكثر من ذلك هناك دلائل كثيرة على أن نواح تكنولوجية بأكملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان".^(١)

وقد صرح بعض مفكري الغرب بذلك قائلاً: "ستسير التكنولوجيا قُدماً..."

ولكن ليس على خطوطنا التي رسمناها لها، وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا".^(٢)

وإذا كانت هناك العديد من البراهين على هذه الحقيقة فإن الحربين العالميتين يظان من أعظم تلك البراهين؛ حيث أعطتنا هاتان الحربتان صورة واضحة على العلاقة العكسية التي حدثت بين كل من التقدم العلمي والتربية الإنسانية؛ حتى إننا لنجد روجيه جارودي يقول تحت عنوان (أن تعيش قرناً يحترق): "قد يكون من الحظ أن تولد مرتين في النار، فتولد في عام (١٩١٣م) عشية الحرب العالمية الأولى، وأن تكون في العشرين من عمرك عام (١٩٣٣م) عندما تخيم على أوروبا الأزمة الكبرى".^(٣)

(١) إنسانية الإنسان. بينيه دوبو، ترجمة: د. نبيل صبحي الطويل، ص ٢٢٨، مؤسسة الرسالة

نقلا عن فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية، د. عبد الحليم عويس، ص ١٦٧، دار الصحوة للنشر، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

(٢) انظر: فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية، د. عبد الحليم عويس ص ١٦٧ (مرجع سابق).

(٣) كيف صنعنا القرن العشرين، روجيه جارودي، ترجمة: ليلي حافظ، ص ٧، دار الشروق ط ٢ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

لقد دفعت هذه الحرب كثيراً من مفكري العالم إلى إعادة التفكير في كل شيء حتى قرر بعضهم وهو (ج ولز) أن يعيد كتابة تاريخ الإنسانية لعله يتوصل إلى تفسير لما وصل إليه هذا الإنسان.

يقول ولز: "لقد كانت في سنة (١٩١٨م) أسباب متعددة تدعو الكاتب إلى أن يحاول كتابة تاريخ للعالم؛ إذ كانت تلك السنة خاتمة سني الحرب، وأثقلها على الناس، وأكثرها رفحاً للحجب عن عيونهم. كان الإملاق الذي لم يألفه الناس يغشى كل مكان، وكان الأسي والحداد يملآن كل فؤاد، وكانت قصة الموتى والمشوهين قد بلغت الملايين عدداً، وأحسَّ الناس أنهم وصلوا إلى الذروة من الأزمة المستحكمة في شئون العالم، وقد تملكهم الملل والتقرز حتى أصبحوا وليس في استطاعتهم أن يقدرُوا ما خبأه لهم القدر من احتمالات معقدة، فلم يكونوا يعرفون أهم قادمون على نكبة في المدنية، أم هم مقبلون على فاتحة عهد جديد في التآلف الإنساني."^(١)

مع هذه الجهود الفكرية ومحاولة فهم ما حدث في الحرب العالمية الأولى فُجعت الإنسانية بالحرب العالمية الثانية، والتي كانت صورةً مكبرةً من الحرب العالمية الأولى.

يقول ج. ب. تايلور: "كانت الحرب العالمية الثانية - في جانب كبير منها - صورةً مكررةً للأولى... ولقد حارب الحلفاء الأوروبيون أنفسهم تقريباً القوى المضادة نفسها في الحرب العالمية الثانية."^(٢)

(١) معالم تاريخ الإنسانية، تأليف: ه. ج. ولز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد جـ ١ - مكتبة كتب عربية الالكترونية.

(٢) أصول الحرب العالمية الثانية، أ. ج. ب تايلور، ترجمة: مصطفى كمال خميس، ص٣٩، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧١م)

ولقد تركت هذه الحرب خسائر مادية فادحة، لكن كانت "الكارثة الحقيقية هي في النفوس، في زوال الثقة في الإنسان، وفي هدم الأحلام الذهبية التي بنتها أطماع الفلاسفة، وصاغتها أيدي المصلحين، ونفخت فيها من روحها قلوب الأنبياء والصدّيقين".^(١)

لقد كانت الخسائر البشرية حقاً مروعة؛ حيث "هلك أكثر من ٥٠ مليون نفس بشرية في أتون ولهب هذه الحرب التي تُعدُّ أكثر الحروب دماراً وسفكاً للدماء في تاريخ البشرية، ومعروف أن (٢٧) مليوناً من هؤلاء قد قضوا نحبهم في أرض النزال والوعى".^(٢)

ولم تكن آثار هذه الحرب قاصرةً على الساحة الأوربية، بل امتدت لتشمل الساحة العالمية، والتي كان منها مصر؛ حيث تركت هذه الحرب آثاراً على الحياة الإنسانية المصرية^(٣).

لقد فرض هذا الوضع الإنساني الذي وصلت إليه البشرية على كل مفكري العالم عامة وفلاسفته التربويين خاصة التفكير في آفاق جديدة ترشد مسيرة هذا الإنسان، حتى قرر (توينبي) أنه ستأتي القرون بعد القرن العشرين، فلا تذكر منه أنه قرن الصناعة الكبرى، ولا أنه قرن الطيران وعجائب المخترعات، كلا، بل لا تذكر منه أنه قرن الذرة والقذيفة الذرية، وإنما تذكر منه أنه القرن الذي أصبحت فيه الدعوة إلى الأخوة الإنسانية موضوعاً من موضوعات العلم

(١) الحرب العالمية الثانية رمضان لاوند، ص ٦، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٤ (١٩٩٢م).

(٢) الحرب العالمية الثانية، ومصائر شعوب آسيا وإفريقيا، (ديمتري يفيموف)، ص ٥٠. دار الموقف العربي بدون.

(٣) تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، د. محمد متولي ص ٢٢٤، دار الثقافة ط ١ (١٩٧٧م).

والعمل، وبرنامجاً من البرامج الواقعية التي يتعاون عليها الأقوياء والضعفاء، ولا يستغني فيها قوي عن ضعيف.^(١)

إذا كانت هذه هي نبذة عن الواقع الإنساني العام في عهد رشيد رضا:

- فهل كان رشيد رضا متفاعلاً مع هذه الأحداث؟
- هل كانت حاضرةً في مخيلته؟
- هل مثلت باعثاً من بواعث منحه التجديد التربوي محوريته في مشروعه الإصلاحية؟

الحقيقة أن المجال التربوي كان إحدى أعظم المجالات التي ألحت على رواد الفكر الإسلامي الحديث - ومنهم بالطبع رشيد رضا - وحثمت عليهم أن يبرزوا الرؤية الإسلامية التي أضحت الشفاء المنتظر من أدواء البشرية؛ ذلك لأن "من أكبر الاخطار التي تمثلها فلسفات التربية المعاصرة أن هذه الفلسفات بتأثير الداروينية الاجتماعية قد خرجت بعلاقة الإنسان مع الكون عن مفهوم التسخير وقلبتها إلى علاقة الصراع والسيطرة على الطبيعة حيث يصارع الإنسان الطبيعة للسيطرة عليها وانتزاع ثرواتها دون هدف ولا غاية إلا هدف الاستهلاك والاستمتاع الدنيوي."^(٢)

إزاء هذه المنطلقات الفلسفية للنظريات التربوية الحديثة لا شك أن الحاجة تعظم إلى منهج إلهي ينظر للإنسان نظرة شاملة، ويؤسس لعلاقة تكاملية بينه وبين المنظومة الكونية من حوله.

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية، عباس محمود العقاد، ص ٦٤ دار نهضة مصر، بدون.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية

المعاصرة، د. ماجد عرسان الكيلاني، ص ١٢٩، دار المنارة، ط ١ (١٤٠٧ هـ -

١٩٨٧ م).

لقد شبه الأهواني هذه الحاجة الإنسانية الحديثة بالحاجة الإنسانية إبان ظهور الرسالة الخاتمة فقال:

"وقد برزت فضائل التربية الإسلامية إلى المحيط الدولي، وثبتت عندما وُضعت في الميزان أنها أفضل تربية. ففي هذا الوقت الذي يهدد فيه العالم بالخراب الشامل من جراء الحرب الذرية إذا بالشعوب الإسلامية تقف موقف الحق والعدل تدافع عن نفسها وتأبى العدوان، وتأمّر بالمعروف، وتتهى عن المنكر، وتتادي بالتعاون والسلام، وأكبر الظن أن موقف اليوم يشبه الصراع بين الفرس والروم أي بين الشرق والغرب قبل ظهور الإسلام مباشرة، فلما أشرق نور الإسلام سقطت الدولتان وورث الإسلام ما خلفناه من حضارة، وحفظ الإنسانية من الزوال بفضل التربية الداعية إلى الصلاح."^(١)

إذا، فالمنهج التربوي الإسلامي مفردة من أعظم مفردات الشفاء الإنساني، لكن لإبراز هذا المنهج لا بد من النظر المتوالي في دواوين الوحي الإلهي والتأمل الثاقب في أسراره وقراءة الواقع الإنساني قراءة متبصرة لتصاغ رؤية تربوية قابلة للتطبيق، وهذا ما حاوله رشيد رضا من خلال تجديده التربوي.



(١) دراسات في التربية، التربية في الإسلام، د. أحمد فؤاد الأهواني ص ١٩ دار المعارف، بدون.

المطلب الثاني علاج انحسار التكوين التربوي للشخصية المسلمة

لم يكن بناء الشخصية الإنسانية أمراً عفويًا حدث أثناء التعلق بمبادئ هذا الدين، بل إنه كان البوتقة الحقيقية التي انصهرت فيها كل مبادئه. لقد أعاد الإسلام بناء العلاقة بين مكونات هذا الإنسان من روح، وجسد، وعقل، ونفس، وكبح سيطرة مكونٍ ما من مكونات الشخصية الإنسانية على بقية مكوناتها، وأوجد نسقاً قيمياً يشكل مفردات التوازن بين هذه المكونات، وكل هذا كونٌ ما عُرف بالشخصية المسلمة، والتي تركت لنا المرويات التاريخية الموثوقة الكثير من مظاهر تشبعها بالمنهج الإسلامي.

ومن الطبيعي أن تخضع هذه الشخصية للسنن الماثورة في هذا الخلق من الرفعة والضعفة، والنهوض والكبوة؛ لذا فقد تراجعت تلك الشخصية تحت ضغط الواقع المتجدد، واختلت العلاقة بين مكوناتها، لكن مع هذا لم تفقد الشخصية الإسلامية كل قوتها الذاتية التي صاغها لها الإسلام، بل ظلت تقاوم هذا التغيير، وتوجد قدراً من التوازن أبقى الأمة الإسلامية في موضع الريادة رداً طويلاً من الزمن، لكن كانت النكسة الحقيقية وقاصمة الظهر في المنحى التاريخي للأمة الإسلامية وصول الخلل إلى محرك الشخصية الإسلامية وسر ذيوعتها وانتشار ريادتها، وهو المكون الروحي والمعرفي حتى قال الأفغاني متحدثاً عن الشرق: "ما هبط عن جليل مرتبته، ورفيع منزلته، ولا استولى الفقر والفاقة على ساكنيه، ولا غلب الذل على عامريه، ولا سلّطت عليه الأجانب، فاستعبدت أهله إلا لإعراض الشرقيين عن الاستتارة بنور عقولهم، وتطرق الفساد إلى نفوسهم." (١)

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د. محمد البهي، ص ١٦٧. مكتبة وهبة ط ١٠.

إننا وكما يقول الدكتور البهي: "تلحظ أن السيد الأفغاني قد أرجع كل مظاهر الجمود والتدهور والانحراف إلى سبب أساسي هو انهيار الشخصية."^(١)
ونفس الأمر قرره الإمام محمد عبده حين قال: "إذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سبباً واحداً: وهو القصور في التعليم الديني: إما بإهماله جملةً كما هو في بعض البلاد، وإما بالسلوك إليه من غير طرقه القويمة كما في بعض آخر."^(٢)
إن معنى هذا ما يلي:

- ١- أن الشخصية الإسلامية قد ابتعدت في عهد التراجع الحضاري عن النظرة الشمولية للمنهج العلمي في الإسلام.
 - ٢- ضعف لديها الاهتمام بالعلوم الطبيعية، وبات الهم الأغلب هو إعادة وتكرار الجهد المبذول سابقاً في العلوم النقلية.
- وهنا حدث التحول في الشخصية الإسلامية، ولو أن الأمر كان مقتصرًا على التدهور الحضاري للأمة دون أي مؤثرات خارجية لكان الخطب يسيراً، ولخضعت الأمة إلى إعادة سريعة لهيكلتها الذات، لكن ما عقّد الأمر، وأربك مسيرة الشخصية المسلمة هو ظهور قوة حضارية علمية ومعرفية أخرى أخذت ما لدى الأمة الإسلامية من موروث حضاري، وقبل ذلك أخذت منها الشعلة التي أضاءها الدين في أنفس أبنائها، فانطلقت تقارع الأمة الإسلامية، وتحاول أن تقضي على ما تبقى لها من حركة.

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د. محمد البهي، ص ١٦٧. مكتبة وهبة ط ١٦٧.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، ج ٢، ص ٥١١

وبالرغم من أنها لم تكن المرة الأولى التي تجابه الشخصية المسلمة هذا التحدي الخارجي؛ حيث إنها قد واجهت أضعافه في الانطلاقة الأولى لها إلا أن الفارق أنها تواجهه هذه المرة دون الجذوة التي منحها لها الإسلام. لقد واجهته هذه المرة بمكون روحي مختل خلد في الكثير من خطوطه إلى السبيل المضاد للإيجابية الإسلامية، وأوجد إطاراً ضيقاً خانقاً للانطلاقة التي أرادها الإسلام. لقد واجهته هذه المرة بمكون علمي أصابه ما أصاب بقية المكونات، واختلّت العلاقة بينه وبين المسيرة الحياتية للأمة.

يقول إقبال: "ظل التفكير الديني في الإسلام راكداً خلال القرون الخمسة الأخيرة، وقد أتى على الفكر الأوروبي زمنٌ تلقى فيه وحي النهضة الإسلامية، ومع هذا فإن أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث هي السرعة الكبيرة التي ينزع بها المسلمون في حياتهم الروحية نحو الغرب! ولا غبار على هذا المنزع، فإن الثقافة الأوروبية في جانبها العقلي ليست إلا ازدهاراً لبعض الجوانب الهامة في الإسلام، وكل الذي نخشاه هو أن المظهر الخارجي البراق للثقافة الأوروبية قد يشل تقدمنا فنعجز عن بلوغ كنهها."^(١)

ومن الطبيعي ألا يحدث هذا الخلل في مسيرة الشخصية المسلمة دون أن تهز وجدان مفكريها، وتلح على أرباب التعقل في الأمة لأن يبحثوا القضية ويقفوا على أبعادها ويشخصوا الداء ليصفوا العلاج؛ لذا فإن "الشعور وتكون الوعي العربي والإسلامي بهذه المشكلة التي بدأت تتساقب داخل الكيان العربي الإسلامي وتتنخر وجوده من الداخل ظهر مبكراً أيضاً عند طائفة من رواد هذا العالم ومفكريه بدءاً من نهاية العصور الذهبية التي عاشها المجتمع الإسلامي صعوداً، أو العودة إلى العد التنازلي سقوطاً مع ما صاحب ذلك من مد وجزر

(١) تجديد الفكر الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص ٥٩، مكتبة الاسكندرية (٢٠١١م).

بحسب الزمان والمكان والأحوال، وهذه الفترة الثانية من حياة الأمة العربية الإسلامية وعلى طولها الزمني واتساع رقعتها الجغرافية لكل شبر شمله الإسلام يشكل من الناحية التاريخية للفكر الإسلامي فكر الأزمة، أو فكر المحافظة على الذات الإسلامية.^(١)

وامتد التفكير في كنه هذه المعضلة إلى العصور المتأخرة، بل يمكن القول بأنه أضحى أكثر إلحاحاً وتطوراً من ذي قبل؛ لأن القضية تعقدت أكثر من ذي قبل، حتى "لقد أجمعت كل المصادر التاريخية والأدبية التي وصفت تلك الحقبة الزمنية - سواء منها الوطنية أو الأجنبية. على أن درجة هذا التخلف والتحلل قد بلغ النهايات القصوى حتى لا يكاد القارئ في عصرنا الراهن يتخيل تلك الأوضاع مهما جنح به الخيال."^(٢)

لقد مثلت قضية تشخيص واقع الشخصية المسلمة والبحث في مكوناتها القضية المفصلية في مفهوم الإصلاح الديني المعاصر كما يقول الدكتور البهي^(٣).

إن هذا التراجع الذي أصاب الشخصية المسلمة كان إحدى أبرز محتومات البحث في سبل الإصلاح التربوي؛ وذلك لأن إصلاح الشخصية الإنسانية هو المقصد الأصلي للتربية.

"والغرض من التربية هو تكوين الشخصية القوية الصالحة، ولا يتنافى هذا الغرض مع الأهداف الأخرى للتربية مثل تنمية مواهب الطفل، أو دفعه في

(١) منهج التعبير الاجتماعي في الفكر الإسلامي، علي بودرباله ص ٣، دار قرطبة ط ١ (١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).

(٢) رفاة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث، د. محمد عماره، ص ١٠، دار الشروق ط ٣ (٢٠٠٧م).

(٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د. محمد البهي ص ٣٢٩ (مرجع سابق).

سبيل التقدم والرفقي لأن صاحب الشخصية هو ذلك الذي شحذت مواهبه وامتلأت حقيبته بأسلحة الكفاح في الحياة الاجتماعية وتهياً للتقدم المفرد والرفقي المستمر.^(١)

والتربية في استهدافها تحقيق هذا المقصد تتنوع سبلها وتتعدد مسالكها "وكمال الشخصية في العلم والعمل والفكر والإرادة والسلوك هو الغاية الأخيرة التي نقصدها من التربية بل من الحياة كلها، أما تثقيف العقل وحسن التفكير ومعرفة العلم، فكلها وسائل إلى السلوك المطلوب حتى تستند إلى المعرفة الصحيحة."^(٢)

وإذا كان إصلاح الشخصية الإنسانية هو المقصد الأعظم للتربية فإن إصلاح الشخصية الإسلامية هو المقصد الأعظم للتربية الإسلامية؛ حيث "إن التربية الإسلامية تطبع شخصية المسلم بطابع خاص يميزه عن أي لون آخر من ألوان التربية."^(٣)

من هنا رأينا رشيد رضا يتعاطى مع هذا المحتم وينطلق في تأسيس رؤيته الإصلاحية للمجال التربوي واضعاً نصب عينيه إيقاظ الشخصية المسلمة وإعادتها إلى فعاليتها الحضارية

"فاشتملت المقالات الافتتاحية خاصة في السنوات الأولى للمنار بيانات مجملة في الإصلاح وإرشاد المسلمين إلى النظر في سوء حالهم وتذكيرهم بما فقدوه من سيادة الدنيا وهداية الدين وما أطاعوا من مجد آبائهم الأولين."^(٤)

(١) دراسات في التربية، التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥.

(٣) المرجع السابق ص ٩٦.

(٤) رشيد رضا الإمام المجاهد، د. إبراهيم أحمد العدوي ص ١٦٩ (مرجع سابق).

ويبين رشيد رضا أن من حتميات الحديث المتتابع عن التربية حالة الأمة التي أضحت فيها فيقول:

"نحن أحوج إلى التربية والتعليم اللذين يشعران قلوبنا معنى الأمة والوطن والجنس، إذ لسنا الآن إلا أفرادًا متبددين متفرقين متتافرين متخاذلين متدابرين متنازعين متباغضين، لا جامعة تجمعنا، ولا رابطة تضمنا وتربطنا، لا يحنُّ قريب لقریب، ولا يرعى حبيب ود حبيب، ولا يرُقُّب أحد في آخر إلا ولا ذمة، وانتهى بنا الأمر إلى أن وضع لنا بعض المحققين في علم الاجتماع البشري هذه القاعدة، وهي أن العداوة والبغضاء فينا مرتبة على نسبة القرب، فهي على أشدها للأقرب، فالقريب فالبعيد فالأبعد."^(١)

إننا حين نرقب الإطار الزمني الذي عاش فيه رشيد رضا ونذكر مدى تفاعله مع قضايا الملح ندرك في الوقت ذاته كيف أن تراجع الشخصية المسلمة كان إحدى أبرز البواعث على البدء في مشروع تربوي شامل مستتبطن من الوحي الإلهي وسائر على أسسه.



(١) مجلة المنار (صفر - ١٣١٦هـ) (يوليو - ١٨٩٨م) مجلد ١ ص ٢٧٨ (إلى أي تعليم وتربية نحن أحوج؟).

المطلب الثالث

إكمال مسيرة البحث في الإصلاح التربوي الإسلامي

لا شك أنه بنزول الوحي الإلهي على القلب النبوي تفجرت ينابيع المعرفة واتسعت آفاقها الإنسانية.

إن هذا المعرفة لم تكن منحصرة في جانب بعينه مهما كان عظيماً، بل كانت معرفة شاملة عميقة متشعبة المناحي متنوعة المشارب، وكانت التربية بتجلياتها المختلفة إحدى أبرز مجالات تلك المعرفة.

والناظر إلى التاريخ المعرفي الإسلامي يدرك إلى أي مدى كان للتربية بموضوعاتها المختلفة وآلياتها المتنوعة مكانتها في خارطة المعرفة الإسلامية النظرية منها والتطبيقية.

"ألف المسلمون في التربية والتعليم كتباً جليلاً ومنتوعة منذ عهد مبكر واهتموا بدراسة الأطفال وأحوالهم وطرائق تعليمهم، ولم يكن شأن المغاربة أقل من شأن المشارقة في هذا الموضوع الهام."^(١)

وإذا كان من الأمور المقررة في التاريخ المعرفي الإسلامي أنه برغم عظم المنشور من تراثنا الإسلامي فإنه لا يمثل كل التراث، فإن هذا الأمر العام سار على المجال التربوي

"إن مما خلف لنا أبائنا من تراث عربي علمي في بحوث التربية - التي نشر قسم قليل جداً منها والتي ما يزال أكثرها مخطوطاً ينتظر النشر - لنظريات وبحوثاً وآراء يجدر بالباحثين درسها ومناقشتها والوقوف عندها طويلاً للإفادة منها في توجيه حركاتنا الثقافية والعلمية والتربوية."^(٢)

(١) التربية والتعليم في الإسلام، محمد سعد أطلس ص ١٥٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٢.

ومن أوائل من أسهموا في المجال التربوي تأليفا ابن سحنون وكتابه الشهير (آداب المعلمين لابن سحنون)، "وهو على الرغم من أنه سلك فيه مسلك المحدثين كتاب ممتع غني بالفوائد جمع كثيرا من النصوص القيمة التي بينت لنا كثيرا من الأوضاع التي نجهلها عن تربية الطفل وتأديبه وتعليمه وتهذيبه في فجر الإسلام وعصر بني أمية وأوائل العصر العباسي".^(١)

وأتى الفارابي ليمثل إضافة مهمة إلى مسار الفكر التربوي الإسلامي "وبمثل هذه المعلومات الدقيقة والتحليلات النفسية المرهفة وأبحاث علم النفس الصادقة المأخوذة عن التجارب والدراسات الشخصية حاول هذا الفيلسوف الكبير أن يوجه المعلمين والمربين من أهل الملة المحمدية إلى تهذيب ناشئة الملة وتأديب أبنائها من شباب وبنات تهذبا رفيعا معتمدا على أصول علم النفس ودراسة الإنسان".^(٢)

ويأتي القابسي ليكون واحدا من أبرز رواد الفكر التربوي الإسلامي؛ حيث كانت آراؤه التربوية علامة فارقة في التاريخ المعرفي الإسلامي، ويعد كتابه الموسوم بـ (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) مرحلة من مراحل تطور الفكر التربوي الإسلامي.

"وكتاب القابسي هو من أنفع الكتب التربوية وأفضلها، ولعله من أوسع ما أثر في الخزانة العربية من كتب التربية والتعليم".^(٣)

وكان من بين آراء القابسي الفارقة في المجال التربوي تبنيه للتعليم الإلزامي الابتدائي للأطفال "وقد أقر كثير من الفقهاء المغاربة والمشاركة الإمام القابسي على نظريته هذه لأنها نظرية سليمة وفتوى وجيهة".^(٤)

(١) التربية والتعليم في الإسلام، محمد سعد أطلس ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٦٢.

(٤) المرجع السابق ص ٧٩.

ولا يمكننا الحديث عن الفكر التربوي الإسلامي دون أن نشير إلى الدور الذي قام به فيلسوف الإحياء أبو حامد الغزالي الذي كانت التربية بمضامينها أعظم مقاصد مشروعه الحضاري.

"وقد تشعبت أقوال الإمام أبي حامد في التربية تشعبا عظيما ولكنها كلها تدور حول جعل الشريعة هي الأساس المحوري المنظم لتربية الأطفال وتوجيههم."^(١)

ورغم عظم الدور الذي قام به الغزالي إلا أننا لا يمكن وضعه كخاتمة للإبداع في فكرنا التربوي الإسلامي لأن هناك شخصية فرضت نفسها في القرن الثامن الهجري كشخصية حملت لواء التجديد في العلوم الإنسانية عامة والتربوية خاصة.

إنه ابن خلدون ومقدمته التي كانت وما تزال العلامة الفارقة في التراث الإسلامي عامة والتربوي خاصة.

"إن من يدقق في هذا الكتاب ويمعن النظر في الآراء والنظريات العلمية التي نشأ بموجبها آباؤنا أبناءهم يرى أنهم لم يبنوا تلك الحضارة اعتباطا ولا جزافا وإنما هي مبنية على أسس قوية وقواعد ثابتة مدروسة تهدف إلى إنشاء الفتى العربي حرا في نفسه مستقلا في تفكيره واثقا من أقواله لا يصدر آراءه وأحكامه إلا بعد التفكير والاختيار لا عن تقليد واضطرار."^(٢)

وإذا أردنا التعرف على عظم تراثنا التربوي الإسلامي فلا يمكن حصر النظر في التراث النظري فحسب أعني التأسيسات التربوية في مؤلفات رواد الفكر التربوي الإسلامي بل ينبغي تتبع التاريخ التربوي المؤسسي من المساجد والكتاتيب وغيرها من المؤسسات.

(١) التربية والتعليم في الإسلام، محمد سعد أطلس ص ١٧١.

(٢) المرجع السابق ص ١٨٠.

"ولم يكد القرن الثاني الهجري يطلع حتى كان ثمة جهاز تربوي متغلغل في كل ناحية من نواحي المجتمع الإسلامي ابتداء من الكتاتيب التي تعلم الأطفال والصبيان إلى المدارس العليا التي تعلم الكبار، وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية بسبب دقة هذا النظام وانتشاره وكانت تلك التربية محققة لروح الإسلام."^(١)

وكما يقال في كل تأريخ للعلوم الإسلامية على اختلاف موضوعاتها من أن هناك فترة تراجعت فيها تلك العلوم وضعف فيها العطاء الحضاري الإسلامي بعد ازدهاره فإن مجال الفكر التربوي الإسلامي لم يكن بدعا من الأمر حيث تراجع هذا الفكر نظريا وعمليا، وأضحى التقليد المحض سمة هذه الفترة. ومع مجيء العصر الحديث وبروز حركة التجديد الإسلامي التي حمل لواءها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده كان لا بد وأن يكون المجال التربوي إحدى أعظم مقاصد هذه الحركة، وكان لا بد وأن تعود جذوة التنظير والتطبيق لهذا المجال لتنتطلق من جديد.

لقد كان إكمال مسيرة الفكر التربوي فريضة من فرائض هذه الفترة، وقد أسهمت فيها مدرسة الأفغاني إسهاما حسنا، وكان من بين من حمل هذا اللواء محمد رشيد رضا.

"وحيث كان العالم الإسلامي في جميع أنحاء الأرض آخذا اليوم في ثورة ينفذ فيها عن نفسه غبار الجمود، ويدفع فيها عن نفسه رغبة الغرب في العدوان حتى يحفظ كيانه فقد برزت مشكلة التربية الإسلامية إلى الصف الأول وأصبحت موضع تفكير كل مسلم."^(٢)

(١) دراسات في التربية، التربية في الإسلام، أحمد فؤاد الأهواني، ص ٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٩.

ولا مانع من أن تختلف الآليات التي يتخذها هؤلاء الرواد ما دام هناك اتحاد في المقصد "وفيما أثر كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إيقاظ الهمم عن طريق الخطابة والمحاضرة انصرف رشيد رضا بكليته إلى إعمال القلم، وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع".^(١)

وينبغي الإشارة إلى أن الانطلاق من الفكر الإسلامي كأساس للرؤية التربوية لم يكن أمراً هيناً؛ ذلك لأن هذا الفكر كان بحاجة ماسة إلى جهد للوصول إلى ما يمثل أصالة هذا الفكر والوعي بما لحق به عن طريق المثاقفة وآلياتها من نتاج فكري منطلق من خلفيات تغاير خلفياته.

"تواجه الكتابة عن التربية الإسلامية مشكلة التمييز فيما يُورده علماء المسلمين من آراء بين ما هو أصيل ودخيل.

هناك بالطبع أشياء يمكن لنا تحديدها ومعرفتها: فنحن نعرف مثلاً أن كتابات كل من ابن سحنون عالم القرن الثالث الهجري والقاسبي عالم القرن الرابع الهجري والماوردي عن التربية والتعليم هي كتابات إسلامية أصيلة خالصة، وهم من أوائل من كتبوا عن التربية الإسلامية كتابة متخصصة. ونعلم أيضاً أن القرن الرابع الهجري يُعتَبَرُ نقطة تحول واضحة بالنسبة للفكر الإسلامي عندما بدأت روافد الفكر الإغريقي تأخذ طريقها مع حركة الترجمة التي شهدت العصر العباسي الزاهر، ولهذا نجد أن الكتابات التي تلت ابن سحنون والقاسبي بدأت تختلط بالعناصر الإغريقية، وهذا يصدق على ابن

(١) الإمام المجاهد، رشيد رضا، د. إبراهيم أحمد العدوي ص ١٥٢.

مسكويه عالم القرن الرابع الهجري والغزالي عالم القرن الخامس الهجري ومن بعدها.^(١)

وعلى كلِّ نقول إن هذا التراث التربوي الضخم ألقى مسؤولية عظمى على رواد الفكر الإسلامي الحديث ومنهم رشيد رضا لأن يكملوا المسيرة تنظييراً وتطبيقاً، ولأن يبرهنوا على صلاحية المنهج التربوي الإسلامي لكل إطار زمني.



(١) التربية الإسلامية، أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي ص ١٢.

المبحث الثاني

مرتكزات التجديد التربوي لدى الشيخ: محمد رشيد رضا

المطلب الأول

الانطلاق من تدبر الوحي الإلهي

لقد كان لرشيد رضا اهتمام خاص بقضية الوحي الإلهي والحديث عن مفهومه ودلائله ومقاصده في كتابه الموسوم بالوحي المحمدي. ولم يكن تعلق رشيد رضا بالوحي الإلهي قاصراً على تأليف كتاب يناقش فيه العديد من مسأله، بل مثل الوحي الإلهي العماد المؤسس لآرائه في سائر المجالات الفكرية.

ويأتي تفسيره المنار ليمثل الحلقة العظمى في المشروع التجديدي لرشيد رضا ذلك التفسير الذي أودع فيه خلاصة أفكاره وزبدة أطروحاته. ومن المعلوم أنه قد تعددت المناحي في التعامل مع النص القرآني ما بين التطرق إلى بيان ألفاظه، والبحث عن أوجه بلاغتها وتراكيبها، والتطلع إلى الكشف عن دقائق مراميها، والاهتمام باستنباط أحكامها. وتتوعت تبعاً لذلك نزعات المفسرين، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية العقائدية، فتوسع توسعاً كبيراً في شتى الآيات المتصلة بهذه المعاني، ومنهم من غلبت عليه النزعة الفقهية الشرعية، فتوسع توسعاً كبيراً في هذه النواحي، وهكذا من توسع في الأخلاق والتصوف والمواعظ وآيات الله في الأنفس والآفاق وغير ذلك.^(١) إن هذا يعني أن القرآن الكريم كان بمثابة المورد الأول لحركة التجديد الإسلامي قديماً وحديثاً، ويأتي رشيد رضا ليكون واحداً من أبرز أعلام

(١) مناهج المفسرين، د. منيع عبد الحليم محمود. ص ٧ مكتبة الإيمان ط (٢٠٠٣م).

المدرسة الاجتماعية في التفسير، تلك المدرسة التي أرسى دعائمها، وأبان أسسها الإمام محمد عبده كما يقول الدكتور عبد الله شحاته: "كان الاستاذ الإمام صاحب مدرسة في الإصلاح الديني عموماً، وفي تفسير القرآن على وجه الخصوص، واستطاع الإمام محمد عبده أن يجرّد تفسير القرآن من كثير من الشوائب التي علقت به، فكان تفسيره فتحاً جديداً في عالم التفسير، ومرحلة من مراحل تطوره استطاع الإمام أن يرسى قواعدهما، وأن يضع أساسهما، ويثبت مفاهيمها في نفوس أتباعه."^(١)

ولقد كشف مؤسس هذه المدرسة الاجتماعية في التفسير عن الحاجة إلى نظرة تجديدية في التعامل مع النص القرآني، فقال: "إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل إلينا."^(٢)

لقد كان رشيد رضا واحداً من أعلام المدرسة الاجتماعية في التفسير تلك المدرسة التي حتم وجودها ظروف العالم الإسلامي التي تعقدت ملامحها؛ حيث إن "رجال المدرسة وهم يواجهون أو يعاصرون يقظة العالم الإسلامي الذي انبهرت طائفة منه بمعالم الحضارة الغربية اتجهوا كغيرهم من المصلحين إلى تلمس السبيل الأمثل لإصلاح المجتمع الإسلامي ووفق أحكام الشريعة الإسلامية؛ بحيث تسبق هذه الأمة أمة الغرب أو تلحق بها مع التزامها بمبادئ دينها، وهي مهمة غير ميسرة تحف بها العقبات، وتحيط بها المتاهات، وتزيغ بها الأهواء، وتلتبس بها السبل، فإن أحاط صاحبها نفسه بنور القرآن الكريم، ولم يحد عن

(١) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن، د. عبد الله شحاته ص ١٩٥. مطبعة جامعة القاهرة (١٩٨٤م).

(٢) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، ج١، ص٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٩٠م).

نوره يَمَنَّةً أو يَسْرَةً لم يزل على جادة الحق حتى ينجو وينجّي، وإلا هلك وأهلك." (١)

ورشيد رضا في انطلاقة تلك كان مُرْتَكِنًا على أساس قوي في علوم الدين وشُعْبِهِ كما قال الإمام المراغي:

"كان فقيد الإسلام السيد محمد رشيد رضا مُحِيطًا بعلوم القرآن، وقد رزقه الله عقلًا راجحًا في فهمه، ومعرفة بأسراره وحِكْمِهِ، واسع الاطلاع على السنة وأفضية الصحابة وآراء العلماء، عارفًا بأصول المسلمين في الأقطار الإسلامية، مُلَمًّا بما في العالم من بحوث جديدة." (٢)

إن رشيد رضا مفكر انطلق من التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، لذا رأينا هذه التصورات العامة حاضرة بوضوح في صياغة الرؤية التربوية الخاصة به.

"ولأن المرجعية الدينية هي المَوْجَّه الحاكم للتربية المنارية شدّد رشيد رضا على ضرورة أن تكون التربية منذ النشأة الأولى وباستمرار على حب الدين وليس العلم والعقل فقط كما يرى العلمانيون، وبطبيعة الحال فإن مفكرنا يرى في الإسلام المرحلة الأرقى في المسيرة الدينية للبشرية." (٣)

(١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ج٢ ص٧٧٧. إدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية ط١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).

(٢) مجلة المنار، ج (٣٥) ص ١٨٦.

(٣) الإصلاح في الفكر التربوي، د. سعيد إسماعيل علي ص ١٥٧٨ ضمن أعمال مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث، والذي نظّمته مكتبة الإسكندرية في الفترة من ٢٣ - ٢٥) المحرم (١٤٣٠) ١٩ - ٢٠ يناير (٢٠٠٩).

إن رشيد رضا في تمسكه بحتمية انطلاق العلوم الإنسانية من هداية الوحي الإلهي كان مؤمنا بأن هذا هو ما يصلح الكائن الإنساني، أما المناهج المجردة من ذلك القائمة على المصدر العقلي فحسب فإنها لا تتمكن من تحقيق إذعان هذا الكائن مهما تعددت أطروحاتها.

"وقد وضع بعض حكماء أوربه قواعد لدين علمي عقلي استحسناها ولم يدعوا لها؛ لأن الإنسان لا يذعن إلا إلا لما يعتقد أنه أعلى منه وله السلطان والقهر عليه، وكل ما يدركه بكسبه فهو يراه دونه ومقهورا لإرادته، لذلك لا يخضع البشر لكل ما يعتقدون أنه صواب وحق في نفسه إلا إذا وافق أهواءهم كما هو معلوم بالقطع من سيرة أفرادهم وجماعاتهم على اختلاف أنواعها، والاختلاف من طبعها، فالدين الذي لا بد منه لإصلاح البشر لا يكون لا بوحى من عالم الغيب، ولا يثبت هذا في عصرنا إلا بالإسلام."^(١)

وانطلاق رشيد رضا في صياغة فكره ونظريته التربوية من الإسلام ليس مصادفًا لطبيعة الرؤى والنظريات؛ ذلك لأن "أي منهج للتربية لا بد أن يعتمد على نظرية تربوية، والنظرية التربوية تعتمد بالضرورة على فلسفة تربوية، والفلسفة التربوية لمجتمع ما لا بد أن تعتمد على عقيدة المجتمع وفلسفته وتصوره العام للكون والإنسان والحياة."^(٢)

لا شك أن للإسلام منظومته المعرفية الخاصة به والتي تنسحب بالتبع على كل مفردة من المفردات، ولو أردنا أن نأخذ مثالًا على هذا التمايز في مجال التربية النفسية فيمكننا ذكر ما يلي:

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٣١٠.

(٢) مناهج التربية، أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مذكور، ص ٨٠، دار الفكر العربي،

(٢٠٠١م - ١٤٢١هـ).

"تمتد وحدة النفس في الإسلام لتشمل الإنسان كله، بما فيه جسمه وروحه، فالنفس في الإسلام هي الإنسان كله، وبما أن الروح في الإسلام لا تعمل مستقلة عن الجسم - رغم أن لها وجودًا مستقلًا عنه، فهو ليس سجنًا لها- فكذلك النفس لا تعمل مستقلة خارج مركب الروح والجسد.

أما في علم النفس الحديث، فليس للإنسان نفس مخلوقة، وإنما له نفس طبيعية، تصنعها الظروف والمؤثرات الخارجية، فالسلوكيون يرون أن النفس تصنعها التربية والمؤثرات الخارجية، والتحليليون وعلى رأسهم فرويد يرون أن النفس بأجزائها الثلاثة عنده وهي: الـ"هي"، والـ"أنا"، والـ"أنا الأعلى"، يصنعها الكبت، فالكبت هو النفس بمختلف أجزائها، وعليه فنحن لسنا أمام علم النفس، وإنما نحن أمام فلسفة طبيعية إحادية في النفس تقابل الفلسفة المثالية الإلحادية في النفس عند أفلاطون وأرسطو، وهي أسوأ منها، إذ لا تعترف بمصدر للنفس خارج العالم، فليس هناك في هذه الفلسفة إذن روح ولا عقل مخلوق، ولا نفسٌ تكونت من الروح والجسد وحصلت على صفاتها وأحوالها بالخلق والفطر كما هو الشأن في الإسلام."⁽¹⁾

إن هذا المثال في الاختلاف الناشئ بين الإسلام وعلم النفس الحديث بنظرياته المختلفة في بنية المفاهيم يوضح لنا حكمة رشيد رضا في الإصرار على صياغة فلسفة تربوية نابعة من الإسلام بمفاهيمه الكبرى.

"ومن أخذ القرآن بجملته، وفقه أحكامه وحكمه يعلم أن الدين وضع إلهي لا يستقل العقل البشري بالوصول إليه بنفسه، بل يُعرَف بالوحي، وأنه مع هذا موافق لسنن الفطرة في تركية النفس، وإعدادها للحياة الأبدية في عالم القدس،

(1) علم النفس الإسلامي العام والتربوي، دراسة مقارنة، محمد رشاد خليل: ص ١، دار القلم، ط ١ (١٩٩١م).

فهو من حيث هو وضع إلهي، يترتب على العمل به والترك جزاء وضعي يحدده الله - تعالى - في الدنيا والآخرة، وهذا الجزاء خاص بمن بلغته دعوته على وجهها. ومن حيث إنه موافق لسنن الفطرة يترتب على الاهتمام به تزكية النفس، وعلى الإعراض عنه تدسيته. وتأثير العقائد الصحيحة والأعمال الصالحة والآداب العالية التي يهدي إليه تأثير فطري ذاتي. فكل من اهتدى بها زكت نفسه بقدر اهتدائه بها وإن لم يعلم أن رسولا جاء بها، وكذلك تأثير العقائد الباطلة والأعمال القبيحة والأخلاق الفاسدة التي ينهى عنها، فكل من تلوثت بها نفسه فسدت وسفلت." (١)

ولأن القرآن الكريم يمثل المصدر الأول والأعظم من مصادر المعرفة الإسلامية فإنه كان ولا بد أن يشكل أهم المنطلقات التي ينطلق منها أي مجدد.

"منذ أن نزل الوحي على الرسول (ﷺ) مثل القرآن للفكر التربوي ينبوعاً صافياً لا ينضب ارتوى منه سنوات وعقوداً بل وقرونًا، فاكتسب بذلك قوة نهوض تربوي شارك في النهوض الحضاري العام." (٢)

لقد بين رشيد رضا أن الوحي الإلهي كان الباب الأوضح لهداية الأمة هداية شاملة إبان نهضتها الحضارية عامة والتربوية خاصة فقال:

"ومن يهيمه العلم الذي يعينه على تهذيب نفسه صار يطلبه من كتب الأخلاق والأدب والتصوف دون القرآن، وهو الذي قلب طباع الأمة العربية كلها وزكى أنفسها وسودها على بدو العالم وحضره منذ الجيل الأول من إسلامها، إلى أن أعرضوا عن هدايته وأدبه اشتغالا بفلسفة الشعوبية وآدابها، أو تنازعا في زينة

(١) تفسير المنار ج٦ ص٦١.

(٢) الإصلاح في الفكر التربوي د. سعيد إسماعيل علي ص ١٥٣٧.

الدنيا وسلطانها، فكانوا يبعدون عن الحق والعدل والفضل والسيادة والملك بقدر ما يبعدون عن هداية القرآن فيها.^(١)

ورغم بيان رشيد رضا للكثير من علل الأمة إلا أنه بين أن أعظمها على الإطلاق ترك الاهتداء بأنوار الوحي الإلهي في مجال التزكية "وما فتن الشيطان هذه الأمة بشيء كما فتنهم بصددهم عن تهذيب أنفسهم وتزكيتها بالقرآن والسنة المبينة له."^(٢)

التربية مقصد الرسالة الخاتمة

لم يرغب عن رشيد رضا أن يبين أن التربية الشاملة مقصد من المقاصد العظمى للرسالة الخاتمة؛ لذا رأيناه يقول: "بين الله تعالى في مواضع من كتابه أنه أرسل نبيه محمد (ﷺ) في الأميين ليخرجهم من الأمية فيتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم."^(٣)

وفصّل رشيد رضا هذا المقصد بعد أن ذكره على وجه الإجمال فيما مضى حيث كشف عن مجموعة من القيم التربوية التي يتحقق من خلالها هذا المقصد. يقول رشيد رضا: "أرسله لإصلاح جميع البشر في أنوار دينهم ودنياهم، وإزالة التعادي والتناكر بين شعوبهم وقبائلهم بالتعارف والتآلف بينهم، وإثبات المساواة في الحقوق والأحكام بين أجناسهم وأفراد رجالهم ونسائهم وعلى اختلاف عروقهم وألوانهم وبقاعهم وأقطارهم، ومنع التمايز بين الطبقات والعشائر بالأسباب والتقاليد العرقية أو الوراثية، وتحقيق التوحيد بينهم في جميع المقومات الروحية والتفاضل بالفضائل النفسية من علمية وعملية."^(٤)

(١) تفسير المنار، ج١٢ ص١٨٠.

(٢) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا ص ١٨١.

(٣) نداء للجنس اللطيف، محمد رشيد رضا، ص١٠، مطبعة المنار (١٣٥١هـ).

(٤) المرجع السابق ص١.

لقد كان لرشيد رضا سعي حثيث لإثبات جدارة المنهجية الإسلامية لأن تشكل رؤية تربوية متكاملة أمام الرؤى التربوية التي انطلقت من منهجيات أخرى تلك المنهجيات التي امتلأت بها الساحة الفكرية في عصره؛ حيث إن "السياسة الداخلية للدولة العثمانية منحت الطوائف الدينية من غير المسلمين امتيازات خاصة في كل ما يتعلق بالشئون الدينية. وقد اعتبرت الدولة العثمانية شئون التعليم من الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب، فحوّلت جميع الطوائف المسيحية والإسرائيلية حق تأسيس المدارس وإدارتها أيضا. وكانت هذه المدارس الطائفية بادئ الأمر من نوع المدارس الدينية حقيقة غير أنها تطورت بعد ذلك بسرعة، وتحولت إلى معاهد تعليمية عصرية. وكانت هذه المدارس تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجامعات ومذاهبها، ولا تمت بأي صلة إلى مناهج المدارس الحكومية واتجاهاتها. وكثيراً ما كانت تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية نفسها، وكانت الحقوق الممنوحة لهذه الطوائف تشمل "لغة التعليم" بهذه المدارس أيضا. فكان يجوز لكل طائفة أن تُعلّم أبناءها بلغتها."^(١)

ولم يقتصر الأمر في ذلك على إنشاء المدارس المخالفة في خلفياتها، بل زاد الأمر شدة إنشاء معاهد لإخراج مُعلّمين وصياغتهم صياغة غربية بحتة منبثة الصلة بالرؤية الإسلامية.

"ويكفي هنا الإشارة إلى أن أول معهد لإعداد المُعلّم في الوطن العربي كله مدرسة المعلمين المركزية التي أُنشئت عام (١٨٨٠م) عن طريق خير سويسري (دور بك) على نمط مثيلتها في باريس، وبعد الحرب العالمية الأولى أُنشئ أعرق معهد للتربية في الوطن العربي (معهد التربية العالي للمعلمين) عن

(١) نداء للجنس اللطيف، محمد رشيد رضا، ص٤٢٤، مطبعة المنار (١٣٥١هـ).

طريق خبير انجليزي؛ حيث جعله على نفس نموذج معهد التربية بجامعة لندن، وكان ذلك عام (١٩٢٩م).

إن ذلك جعل آفاقاً من المعلمين يدرسون ويُدْرَسُونَ على غير النموذج الإسلامي في التربية، وبالتالي حرّم الفكر التربوي الإسلامي من فرص كثيرة لأن يُرَاجَعَ، ويُغَيَّرَ، ويُطَوَّرَ.^(١)

لقد ارتأت فئة من المفكرين أن الذاتية الإسلامية هي التي جنت على الشرق والشرقيين، وأن الحل الوحيد هو في استنساخ التجربة الغربية بكل آلياتها وجهازها المعرفي، ولم تكن هذه الرؤية موجودة على هامش الحياة الفكرية المصرية والعربية في هذا الوقت، بل كانت تمتلك جانباً كبيراً من مشهد هذه الحياة متسلحة بالعديد من آليات التأثير من صحف ومجلات وأعمال فنية وغيرها.

لقد خاض رشيد رضا معركة التربية مع هذه الفئة مُبَيَّنًا أن الذاتية الإسلامية ليست هي الداء بل هي الدواء، وكان تدبره للقرآن الكريم أعظم السبل لذلك؛ إذ كان ينفذ بفكره الثاقب إلى مقاصد الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً. "و غاية الدين تركية النفس بمعرفة الله وعبادته، وما شرعه من الأعمال والآداب للفوز بسعادة الدارين."^(٢)

إن رشيد رضا كان يستخرج الفوائد التربوية من العبادات التي ينظر إليها البعض على أنها مجرد طقوس تؤدي، ومن أمثلة ذلك رؤيته لمقاصد الطهارة في الإسلام، حيث رأيناها يبرز مقاصدها التربوية والاجتماعية فيقول عن الفوائد من جعل الطهارة من أحكام الدين وعبادته ما يلي:

(١) ينظر: الإصلاح في الفكر التربوي، د. سعيد إسماعيل علي ص ١٥٨٥.

(٢) تفسير المنار ج ٧ ص ٤٦١.

(الفائدة الأولى): أن يتفق على المواظبة عليها كل مذعن لهذا الدين؛ من حضري وبدوي، وذكي وغبي، وفقير وغني، وكبير وصغير، وأمير ومأمور، وعالم بحكمتها وجاهل لمنفعتها حتى لا تختلف فيها الآراء، ولا تحول دون العمل بها الأهواء، كما هو شأن البشر في جميع ما يستقلون فيه من الأشياء..

(الفائدة الثانية): أن تكون من المذكرات لهم بفضل الله ونعمته عليهم؛ حيث شرع لهم ما ينفعم ويدراً الضرر عنهم، فإذا تذكروا أنه يرضيه عنهم أن تكون أجسادهم على أكمل حال من النظافة والطهارة، ويتذكرون أن أهم ما فرض عليهم لأجله تطهير أجسادهم هو أنه من وسائل تزكية أنفسهم وتطهير قلوبهم وتهذيب أخلاقهم التي يترتب عليها صلاح أعمالهم؛ لأنه تعالى ينظر نظر الرضا والرحمة إلى القلوب والأعمال، لا إلى الصور والأبدان، فيعنون بالجمع بين الأمرين؛ توسلا بهما إلى سعادة الدارين..

(الفائدة الثالثة): أن مجرد ملاحظة المؤمن امتثال أمر الله تعالى بالعمل، وابتغاء مرضاته بالإتيان به على الوجه الذي شرعه، مما يغذي الإيمان به، ويطبع في النفس ملكة المراقبة له، فيكون له عند كل طهارة بهذه النية والملاحظة، - التي شرحنا معناها في بحث نية الوضوء - جذبة إلى حظيرة الكمال المطلق، تنزكي بها نفسه، وتعلو بها همته، وتتقدس بها روحه، فيصلح بذلك عمله، وقس على هذه العبادة سائر العبادات؛ لهذا كان لأولئك المصطفين الأخيار، من صحابة النبي المختار، تلك الأعمال والآثار، والعدل والرحمة.^(١) لقد فتح رشيد رضا آفاقاً تربوية واجتماعية في النظر إلى العبادات الإسلامية.

إنها النظرة التي تأخذ في حسابها مكونات هذا الإنسان قلباً ونفساً وعقلاً.

(١) تفسير المنار ج٦ ص٢٢١.

إنها النظرة التي تبرز فيها العبادات وسيلة الإسلام العظمى في تركيبة الإنسان ظاهرا وباطنا.

يقول رشيد رضا عن عبادة الصيام: "الصيام رياضة بدنية نفسية، وجمع بين حرمان النفس من لذاتها بقصد التربية، وبين تمتعها بها توسلا إلى شكر النعمة والقيام بالخدمة."^(١)

إن هذه النظرات التأملية التدبرية في الوحي الإلهي، وصياغة ما ينتجه العقل المسلم من خلالها صياغة موافقة للغة كل عصر لهو السبيل لصياغة رؤى إسلامية في مجال التربية خاصة والعلوم الإنسانية عامة.



المطلب الثاني تبني بنية مفاهيمية واضحة

مع أن المفاهيم في حد ذاتها تُعتبر مفردةً من مفردات النتاج الفكري الإنساني إلا أنها تمثل المفردة الأكثر أهمية في بنية هذا النتاج؛ وذلك للأمر التالي:
الأمر الأول: أنها تُعطي دلالة شمولية للنتاج الفكري الإنساني، وهذه الدلالة لا غنى عنها في الوقوف على هذا النتاج، وسبر أغواره، والتوصل إلى ما يمثل منها قواسم معرفية عامة، وما يندرج منها تحت إطار من الخصوصية الدينية أو الحضارية.

إن هذه الدلالة الشمولية كذلك تضمن انضباط الإطار الحوارية بين السياقات المعرفية المختلفة وعدم استهلاكه في مفردات منفصلة عن إطارها الكلي.
ذلك لأن "المفهوم يمثل خلاصة الأفكار والنظريات والفلسفات المعرفية، وأحياناً نتائج خبرات وتجارب العمل فيه وفي النسق المعرفي الذي يعود إليه وينتمي إلى بنائه الفكري."^(١)

إن هذا يعني أن: "المفاهيم ليست ألفاظاً كسائر الألفاظ، وما هي مجرد أسماء أو كلمات يمكن أن تُفهم وتُفسر بمرادفاتها أو بما يقرب في المعنى إليها، بل هي مستودعات كبرى للمعاني والدلالات كثيراً ما تتجاوز البناء اللفظي، وتتخطى الجذر اللغوي لتعكس كوامن فلسفة الأمة، ودفائن تراكمات فكرها ومعرفتها، وما استنبطته ذاكرتها المعرفية."^(٢)

الأمر الثاني: أن المفاهيم تمثل الخطوة الأولى لاستيعاب أي من الحقول المعرفية؛ لأن من أسباب التطور المفاهيمي واختلاف الدلالات في بنيته تنوع

(١) نحو منهجية معرفية قرآنية، محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، د. طه

جابر العلواني، ص ١٢٣، دار الهادي، ط ١ (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

(٢) المرجع السابق ص ١٢٤.

الحقول المعرفية، هذا التنوع الذي ازداد مع ازدياد الحركة الفكرية للإنسان، فشهدت المعارف حالة من حالات التفريع الذي أنتج طائفةً كبيرة من هذه المعارف متفاوتةً في درجة التداخل والتباين.

انطلاقاً من هذا فإن "تحليل المفاهيم الأساسية لأي فرع أو حقل معرفي يُعتبر المدخل الأول لتفكيك ذلك الفرع أو الحقل بشكل يسمح بتشخيصه، وتحديد وضعيته، ومعرفة مبادئه ومداخله." (١)(٢)

الأمر الثالث: أن إدراك المفاهيم ركن أساسي من أركان الإدراك الكلي للعقلية المسلمة؛ حيث "لا يكفي لإدراك كيفية أداء العقل المسلم أن ندرك إطار هذا العقل ومنهجيته فقط ولا المنطلقات التي يركز عليها، بل لا بد لنا من معرفة المفاهيم التي يعمل هذا العقل وهذه المنهجية على أساسها، ويتحرك بها، ويمثل جانبه العملي والتطبيقي" (٣).

الأمر الرابع: أن المفاهيم تمثل في كل أمة من الأمم معياراً للتكامل أو الانحسار المعرفي؛ حيث إن "الأمم العريقة التي تكامل فكرها لا تكون عادة في حاجة إلى مفاهيم وافدة، فإن نظرت فيها فمن أجل أن تعرف أسلوبها وأهدافها." (٤)

(١) نحو منهجية معرفية قرآنية، محاولات في بيان قواعد المنهج التوحيدي للمعرفة، د. طه جابر العلواني، ص ١٢٣، دار الهادي، ط ١ (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

(٢) لهذا برزت المعاجم المتخصصة في أفرع العلوم المختلفة كالمعاجم الفقهية، والمعاجم الأصولية، والمعاجم الفلسفية وغيرها؛ لتكون هذه المعاجم مدخلاً لا غنى عنه في الإلمام بمفاتيح هذا العلم من جهة، ورصد التطور المعرفي له من جهة أخرى.

(٣) أزمة العقل المسلم، د. عبد الحميد أحمد أبو سليمان ص ١٤٩.

(٤) أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، عبد الكريم غلاب ص ٦، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية (٣٣) بيروت ط ١ (١٩٩٨م).

إن معنى هذا أن الأمم جميعاً قد تشهد اتساعاً مستمراً في دائرة المصطلحات وإدخالها في مكوناتها المعرفية، أما التجدد في المفاهيم فيخضع لدرجة التكامل الحضاري لدى الأمم، فالأمة ذات التكامل الحضاري تكون على درجة كبيرة من الاستقرار المفاهيمي.

الأمر الخامس: أن كل إشكالية في المفهوم ترتد تبعاً على منهجية التفكير، فإذا اتسمت المفاهيم بسمة تحيدية انعكس ذلك على منهجية التفكير، وإذا افقدت هذه المفاهيم هذه السمة تخلخت المنهجية.

"اللغة سبيل الانضباط أو الانحراف في الفكر، ومتى تعددت المفاهيم عن طريق الدلالات اللغوية أو الدلالات الفكرية ودلالات الممارسة انحرف التفكير ولم يستقم وانحرف تبعاً لذلك السلوك والممارسة."^(١)

إن تحرير المفاهيم يُعدُّ الخطوة الأولى التي تسبق الحراك الفكري المنشود حول قضية ما حتى يسير هذا الحراك على بينة من أمره، وهذا ما تبناه رشيد رضا كركيزة من ركائز فكره التربوي؛ لذا رأيناه يُكثِرُ في نتاجه العلمي من بيان المفاهيم.

ابتداءً رشيد رضا جولته المفاهيمية ببيان مفهوم التربية، فقال: "التربية هي مساعدة القوى التي من شأنها أن تربو وتنمو على بلوغ الكمال في نموها المستعدّة هي له في أصل الفطرة والخلقة، وذلك بإزالة الأسباب التي تُعيق النمو، أو تتحرف بالقوى عن جادة الاعتدال المطلوب، وبإمداد هذه القوى بما تغنّذي به."^(٢)

(١) أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، عبد الكريم غلاب ص ١٠، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية (٣٣) بيروت ط ١ (١٩٩٨م).

(٢) مجلة المنار، ج ٢ ص ١٥ (عدد ٢٨ شوال ١٣١٦هـ — ١١ مارس ١٨٩٩م) عنوان المقالة: التربية والتعليم.

إننا نلاحظ هنا أن رشيد رضا يُعرِّفُ التربيةَ تعريفاً يرتكن على أمور ثلاثة:
الأمر الأول: ذكر الغاية من التربية، وهي مساعدة القوى التي من شأنها أن
تربو وتنمو.

الأمر الثاني: ذكر آليات التربية، وهي المتمثلة في إزالة الأسباب التي تُعيق
تحقيق هذه الغاية.

الأمر الثالث: أن التربية إنما وظيفتها إكمال البناء الفطري لدى الإنسان،
وهذه نقطة جديرة بالإشارة إليها ليكون مفهوم التربية منطلقاً من الرؤية
الإسلامية العامة للإنسان.

ومن التعريفات التي ذكرها رشيد رضا للتربية قوله:

"التربية تنشئة قوى الإنسان الجسدية والعقلية والروحية بما تربو به وتتمى
وتترعرع حتى تبلغ كمالها الشخصي في محيط الملة والأمة، فمن أعمالها ما
هو مفيد لكل أفراد الناس؛ لأنه لا يختلف باختلاف الأقسام في مقوماتها الملية،
ومشخصاتها الوطنية، كتربية الأبدان المبني على قواعد الصحة في الغذاء
والنظافة والرياضة، ومنها ما يختلف اختلافاً واسع المسافة بعيد الشقة." (١)

إننا نرى هنا أن مفهوم التربية ينضوي على ما هو مشترك إنساني وما هو
من الخواص لكل أمة من الأمم.

ولم يكن المفهوم العام للتربية هو المفهوم الوحيد الذي تطرق رشيد رضا
إلي إيضاحه بل تطرق كذلك إلى بعض المفاهيم الجزئية كمفهوم التربية النفسية،
حيث قال عنها:

(١) مجلة المنار ج ٢ ص ١٥ (عدد ٢٨ شوال ١٣١٦ هـ - ١١ مارس ١٨٩٩ م) عنوان
المقالة التربوية والتعليم.

"تدور التربية النفسية على قُطبي الترغيب والترهيب؛ إذ هي عبارة عن الحثّ على الفضائل والكمالات والتفكير عن الرذائل والنقائص، فالترغيب يُحَدِّث الرجاء والأمل بالثبوتة وحسن الجزاء على العمل الصالح، والترهيب يُورِثُ الخوف والرهبة من العقوبة. ووقوع البلاء على العمل القبيح."^(١)

إننا حين نتدبر مفهوم التربية النفسية لدى رشيد رضا يمكن أن نستنتج عدة أمور وهي كالتالي:

١- إن رشيد رضا ينطلق في إبرازه لهذا المفهوم من نظرة متعمقة إلى المصدر المعرفي الأول وهو القرآن الكريم حيث تدور تربية النفس فيه على هذين المحورين الرئيسيين أعني الترغيب والترهيب.

٢- الصلة الوثيقة بين مفهوم التربية النفسية والأسس المعرفية للنظام الأخلاقي الإسلامي من الإلزام والجزاء والمسؤولية مما ينتج في آخر الأمر صلة بين نظامين إسلاميين هما النظام التربوي الإسلامي والنظام الأخلاقي الإسلامي.

ويأتي مفهوم تربية الأمم ليشهد الدينامية الأوسع التي تتضمن تحتها حركة التغيير التي هي ثمرة التربية.

يقول رشيد رضا: "المراد بتربية الأمم نقلها من طور إلى طور أعلى منه وأرقى في الحياة المادية والمعنوية، وهذا العمل هو أشقُّ الأعمال البشرية وأرقاها."^(٢)

(١) مجلة المنار ج٢ ص ١٨٥ (عدد ٢٤ محرم ١٣١٧هـ - ٣ يونيو ١٨٩٩م) عنوان المقالة: التربية النفسية.

(٢) مجلة المنار، ح ١٥ ص ٥٦٧ (عدد شعبان ١٣٣٠هـ - أغسطس ١٩١٢م)، عنوان المقالة: التربية ووحه الحاجة إليها وتقاسيمها.

إن هذا التعريف لتربية الأمم يعطينا العديد من الدلالات، والتي تتمثل في التالي:

- ١- أن رشيد رضا لم يهتم فقط بمفاهيم التربية الفردية، وإنما كذلك بمفاهيم التربية الجماعية التي تتوجه بالأساس إلى الأمم والمجتمعات.
- ٢- أن تربية الأمم والمجتمعات لا تعنى بالجوانب المادية فقط أو الجوانب المعنوية فقط، وإنما تعنى بالجانبين كليهما.
- ٣- اعتبار العامل الزمني في مفهوم تربية الأمم، والذي يعني أن الأمم في تغيرها تخضع لسنن التغيير العامة حيث الانتقال من طور إلى طور.

بيان الفوارق بين المفاهيم المتقاربة في التصور الذهني

وقد كان من آليات تحديد المفاهيم لدى رشيد رضا نفاذه إلى زاوية تُعدُّ من أهم الزوايا في هذا التحديد، وهي زاوية بيان الفوارق بين المفاهيم المتقاربة في التصور الذهني، والتي قد يُخال أن بينها ترادفاً، ومن هذه المفاهيم الأشدّ التصاقاً بمفهوم التربية مفهوم التعليم حتى يكاد لا يُذكر أحدهما دون الآخر، ولقد كان لرشيد رضا رؤيته في بيان العلاقة بينهما

"التعليم - وإن كان يدخل في مفهوم التربية العام الذي يشمل تربية الجسم والنفس والعقل - قد خُصَّ بهذا الاسم دون سائر أنواع التربية، وصارت المقابلة بين التربية والتعليم من المقابلة بين العام والخاص."^(١)

ويقول أيضاً في هذا السياق: "التربية والتعليم متلازمان بمعنى: أن الثاني لازمٌ للأول، لا يتم إلا به، بل هو جزء منه؛ لأن التربية على ثلاثة ضروب: تربية الجسم، وتربية النفس، وتربية العقل، وهذا الأخير هو عين التعليم."^(١)

(١) مجلة المنار، حـ ١٥ ص ٥٦٧ (عدد شعبان ١٣٣٠هـ - أغسطس ١٩١٢م)، عنوان

المقالة: التربية ووحه الحاجة إليها وتقاسيمها.

وإذا كان للمفهوم إطلاقان فإن رشيد رضا يذكر هذين الإطلاقين؛ لذا رأيناه يقول:

"(التعليم) له إطلاقان:

أولهما: إمداد القوى المُدرِّكة بعَرَضِ الأشياء عليها تدريجيًا بالقول والفعل بحيث تُدرِّكُها وتقدر على التصرف فيها قولاً وعملاً (كل شيء بحسبه)، وهذا المعنى داخلٌ في مفهوم التربية، ويشمل: تعليم العلوم الاعتقادية والأدبية والفنون الصناعية.

وثانيهما: علم أساليب التعليم وطرقه القريبة، وهو فنٌّ نفيس ارتقى المشتغلون به الدرجات العلى في العلوم والفنون.^(٢)

إن تمييز الإطلاقات في الاستعمال المفاهيمي يمنع من وقوع الإشكال المعرفي، وبالتالي تضحى النتائج العلمية أكثر دقة.

بيان خطورة الجهل المفاهيمي

ويبين رشيد رضا خطورة الجهل المفاهيمي والذي يثمر بدوره جهلاً معرفياً عاماً فيقول:

"ربما خفي على البعض الارتباط بين الأخلاق والأعمال، فلم يُسلَّم بأن حسنها لحسنها، وقبحها لقبحها، مع تسليمه بأن سعادة الدارين إنما هي بالأعمال، وهذا الخفاء لا يكون إلا عن الجهل بمعنى لفظ الأخلاق وما هو المراد منه، فإذا فهم ما هو المعنى منه انجلى له ذلك الارتباط كالشمس ليس دونها سحاب."^(٣)

(١) مجلة المنار ج١ ص ٥٦ (عدد ٢٩ شوال ١١٥هـ - فبراير ١٨٩٨م) عنوان المقالة: التربية والتعليم.

(٢) مجلة المنار ج٢ ص ١٥ (عدد ٢٨ شوال ١٣١٦هـ - ١١ مارس ١٨٩٩م) عنوان المقالة: التربية والتعليم.

(٣) مجلة المنار ج١ ص ٦٩ عدد (ذو القعدة ١٣١٥هـ - مارس ١٨٩٨م) عنوان المقالة: تبصرة وذكرى لقوم يعقلون.

إن معنى هذا أن الجهل بالمفاهيم الأخلاقية والتربوية يحول دون رؤية أطر العلاقات بين دوائر البناء الذاتي والخارجي، وينتج عنه تلك النظريات الفلسفية التي انحازت لدائرة منهما على حساب الأخرى.

مفهوم الفطرة وامتداداته التربوية

ومن المفاهيم الرئيسة في الرؤية التربوية لرشيد رضا مفهوم الفطرة، ذلك المفهوم الذي تم تناوله في العديد من الحقول المعرفية وشهد العديد من أوجه الالتباس.

إن تحرير هذا المفهوم وبيان امتداده المعرفية المختلفة لهو من أولى الواجبات على الباحث في الفكر الإسلامي عامة والتربوي خاصة، وذلك للأمر التالي:

١- ارتباط هذا المفهوم ببداية الخلق لهذا الإنسان أي إن هذا المفهوم لا يتحدث عن مرحلة ثانوية من حياة الإنسان بل ينضوي تحت التصور العام لبداية خلقه.

٢- ارتباط هذا المفهوم بأكبر قضية في البناء المعرفي الإسلامي وهي قضية التوحيد؛ ذلك لأن تأسيس معنى الفطرة يعد عاملاً جوهرياً في تأسيس مفهوم التوحيد.

٣- العلاقة الوثيقة بين إيضاح مفهوم الفطرة والمفاهيم التربوية وعلى رأسها مفهوم التربية ذاته، لذا رأينا قضية الفطرة واضحة في تعريف رشيد رضا ومن قبله رواد الفكر الإسلامي لمفهوم التربية.

يقول رشيد رضا عن مفهوم الفطرة: "وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الإنسانية الجامعة بين الحياتين الجسمانية الحيوانية والروحانية الملكية، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما."^(١)

(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٢٥٨، عز الدين للطباعة ١٤٠٦هـ.

إن هذا المفهوم الذي بينه رشيد رضا يظهر فيه انطلاقه من استكناهه للوحي الإلهي وتبصر بمضامين الرؤية الإسلامية للإنسان.

إن رشيد رضا قد أسس هذا المفهوم على عدة دعائم ومنها:

١- بيانه أن الفطرة هي فطرة الله تعالى.

٢- إيضاحه أن الفطرة لا تنفصل عن التكوين الثنائي للإنسان أعني تكوينه

المادي والروحي.

٣ - كشفه أن الفطرة لا تمثل وجه الكمال الذي يحول دون الاستزادة؛ بل

إنها تعني وجه الاستعداد الذي يدفع الإنسان لطلب الكمال.

٤ - بيانه أن الاستعداد المضمن في الفطرة لا يتصل فحسب بعالم الشهادة بل

هو موصول بعالمي الغيب والشهادة، مما يعكس العلاقة الوثيقة بين كل من

الفطرة ومصادر المعرفة من المنظور الإسلامي.

وحيث كان من آليات الإيضاح المفاهيمي بيان العلاقات من التباين والعموم

والخصوص المطلق والخاص وغيرها من العلاقات المعروفة رأينا هذه الآلية

حاضرة في إيضاح رشيد رضا للمفاهيم التربوية، ومن أمثلة ذلك بيانه لكل من

مفهومي العلم والحكمة.

"فالحكمة أخص من العلم، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق واسرار الخلق."^(١)

لقد اتضح مما سبق أن الجانب المفاهيمي كان جانبا محوريا في الإصلاح التربوي لرشيد رضا استطاع من خلاله أن يضع بين أيدينا مجموعة لا بأس بها من المفاهيم الجوهرية لتستمر بعدها عملية استنباط المفاهيم الأخرى سيرا على منوالها.

وينبغي العلم بأن المفكر لا يقاس إسهامه المفاهيمي بكثرة المفاهيم التي تناولها بقدر ما يقاس بكيفية تناوله لها، واستطاعته لاستخراجها وفق الأسس المعرفية التي تنطلق منها رؤيته العامة فتأتي بمثابة المدخل المعرف لمشروعه الفكري والخارطة الدالة على تفاصيله.



(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص ٢٦٧، عز الدين للطباعة ١٤٠٦هـ.

المطلب الثالث تبني النظرة القاعدية

لقد كان من أعظم تجليات الإسلام في صياغته للعقلية الإسلامية تشكيله للقدرة على التوصل إلى الأطر الكلية التي تتدرج تحتها الجزئيات، والأصول العامة التي تستتبع ما تحتها من الفروع.

وبرزت العديد من العلوم المعبرة عن تمكن العقلية الإسلامية من هذه الملكة مثل: أصول الدين، وأصول الفقه، وعلم المقاصد، والقواعد الفقهية، وغيرها من العلوم الإسلامية.

ويكشف لنا رواد الفكر الإسلامي عن محورية التوصل إلى القواعد العامة وفقهها، ففي مجال القواعد الفقهية مثلاً نجد الإمام القرافي يقول:

"هذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف، ويظهر رونق الفقه ويعرف، وتتضح مناهج الفتاوى وتكشف. فيها تنافس العلماء، وتفاضل الفضلاء، وبرز القارح على الجذع^(١)، وحاز قصب السبق من فيها برع، ومن جعل يُخرِّج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاعت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تنتاهى وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناهجها، ومن ضبط الفقه بقواعده

(١) يقصد المؤلف أن بوعي هذه القواعد يبرز من له ملكة في العلم راسخة تحصلت بمضي السنين الطوال ممن لا يزال في بداية الطريق كما يبرز الفرس القارح الذي تخطى في السن على الجذع الذي ما يزال في مبدئه، فقد جاء في لسان العرب: (قَرَحَ الفرسُ يَقرحُ قُرُوحاً، وقَرَحَ قَرَحاً إذا أنتَهتْ أسنانه، وإنما تنتهي في خمس سنين لأنه في السنة الأولى حوَّلي، ثم جذع ثم ثني ثم رباح ثم قارح. (لسان العرب، ابن منظور ج ٢ ص ٥٦٠).

استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات.^(١) إن من الفوارق بين مفكر وآخر قدرته على صياغة رؤاه في قالب قاعدي كَلِّيّ تنضوي تحته الجزئيات، وتنسبك من خلاله المفردات، وكلما كان المفكر علي وعي بهذه الحتمية كلما كان أقدر على ضبط هذه الجزئيات والمفردات، ولقد رأينا هذا البعد جلياً في المعالجة التربوية لرشيد رضا حيث رأيناه يهتم اهتماماً بالغاً بالنظرة الكلية القاعدية لمفردات الإصلاح؛ لذا رأيناه يقول:

"كل كثرة لا بد أن تجمعها جهة وحدة، فكما أن الوحدة التي نسميها سعادة الأمة لا تحصل إلا بأمور كثيرة ترجع إلى شيء واحد وهو (سعادة الأمة)، كذلك وسائل هذه الأمور الكثيرة التي منها تُستمد مسائل كثيرة تُتَوَلَّى إلى شيء واحد. (وسيلة ترجع إليها جميع الوسائل، وسبب يجمع كل الأسباب)."^(٢)

ويقول أيضاً في هذا الصدد:

"كُتِبَتْ في مقالة أننا إذا نظرنا في ضعفنا وبحثنا في علاجه نرى أننا في حاجة إلى أشياء كثيرة، وإذا ارتقينا في الأسباب ننتهي إلى شيء واحد إذا وُجِدَ أوجد كل شيء ألا وهو الرجال العارفون بطرق المعالجة معرفة صحيحة تبعث على العمل."^(٣)

إن هذا يعني أننا بحاجة أثناء بحثنا عن عللنا وأدوائنا إلى أن نميز بين العلل الرئيسية والعلل الثانوية بين الأسباب التي تنضوي تحت غيرها وبين تلك التي تحوي غيرها.

(١) الفروق للقرافي ج ١ ص ٣ (مرجع سابق).

(٢) مجلة المنار، ج ١ ص ٣١ (عدد ٢٩ شوال ١٣١٥هـ - فبراير ١٩٩٨م) عنوان المقالة: محاوراة في سعادة الأمة.

(٣) مجلة المنار، (٢ جمادى الآخرة - ١٣١٧هـ) - (٧ أكتوبر - ١٨٩٩م) مجلد ٢ ص ٤٧٠ (عنوان المقالة من خطبتنا في التربية القسم الثاني).

إننا باختصار نحتاج إلى وعي بالوزن النسبي لكل علة من العلل. وقد برز هذا الأمر في المناقشة التي عقدها رشيد رضا بخياله المتسع بين حكيم يطرح على جلسائه أسئلة تدور حول السبب في تأخر الأمم الشرقية فقال: "ثم التفت إلى القوم فقال: هل بقي عندكم شيء من الأجوبة؟ فأجابوا بلسان واحد: لا، وإننا نطلب الجواب من حضرة السائل الحكيم. فقال: إن الجواب الذي قلتُ؛ إنه وسيلة لسعادة الأمة تجمع كل الوسائل، وسبب يرجع إليه جميع الأسباب هو (تعميم التربية والتعليم)، وهذا اللفظ تلوكه الألسنة كثيراً إلا أن معناه لم يُعطَ حقه من التبصر والتأمل. فإن كنتم في ريب مما قلت فإنني مستعد لإقناعكم. وإن أذعنتم ولم توجهوا كل قواكم العقلية والمالية للحصول على هذه الرغبة، فأنتم العاملون على ضياع أوطانكم وخائنون أمتكم وملتكم."^(١)

إن تبني النظرة الكلية في النظر إلى الألفاظ ومن ورائها المعاني تعطي للمفكر الفرصة في رؤيتهما رؤية مختلفة عن النظرة العابرة التي لا تنفذ إلى جوهر الأشياء؛ لذا رأينا رشيد رضا يحل الكلمات التي تبدو للوهلة الأولى أنها كلمات ضعيفة الأثر فإذا هي تحمل في طياتها نتائج أعمق بكثير

يقول رشيد رضا: "ورُبَّ كلمة واحدة يتعلم بها الولد عدة رذائل، وذلك كأن تعطيه أمه تفاحة وتقول له: أخفِ خبرها عن أخيك. تُعلِّمه بها الكذب والآثرة والبخل والظلم، حيث لم تساوِ بينه وبين أخيه، وسوء المعاشرة والسرقه؛ لأن مبدأها أخذ الشيء خفية وغير ذلك."^(٢)

(١) مجلة المنار عدد شوال (١٣١٥هـ) - فبراير (١٨٩٨م) ج ١ ص ٣١، عنوان المقالة: محاوره في سعادة الأمة.

(٢) مجلة المنار (١٠ محرم - ١٣١٧هـ) (٢٠ مايو - ١٨٩٩م) مجلد (٢) ص ١٥٥، عنوان المقالة: التربية النفسية.

ومن أمثلة تبني النظرة الكلية تدبر رشيد رضا للآيات الجوامع مثل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧))^(١).

حيث يقول: "هذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية، فالموعظة: التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطر أمراضها الاعتقادية والخلقية وترجعها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء: تخلية يتبعها طلب التخلية بالصحة الكاملة والعافية التامة."^(٢)

ويأتي في نفس السياق أيضا تفسيره لقوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)^(٣).

حيث يقول: "هذه الجملة أعجب جمل القرآن، ولعلها أبلغها في التعبير، وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية وعلم الصفات الربانية وعلم التربية الدينية التي تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء."^(٤)

وإذا كان للنظرة الكلية كل هذه الأهمية فإن أعظم ما يعين على تبنيها الوعي بسنن الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس؛ لذا رأينا رشيد رضا يولي قضية السنن الإلهية عنايته الكبرى في تعامله مع الوحي الإلهي كاشفا عن العلاقة الوثيقة بين الوعي بهذه السنن وآفاق الإصلاح التربوي.

"مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وصدور آثارهما عنهما بالعمل أنه يتوقف على صيرورة الإيمان بهما إذعانا وجدانيا حاكما على القلب

(١) سورة يونس آية رقم (٥٧)

(٢) الوحي المحمدي ص ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٢٤.

(٤) تفسير المنار ج ٩ ص ٥٢٧.

راجحا على ما يخالفه من رغب ورهب وأمل وألم، وإنما يكون هذا في الأحداث بالتربية العلمية العملية.^(١)

إن الغلظة عن سنن الله تعالى في الآفاق والأنفس هو العلة في الارتكاس التربوي الإنساني ومخالفة العلم للعمل.

يقول رشيد رضا: "ذلك بأن لهم قلوبا لا يفقهون بها معنى الآيات الإلهية في الأنفس والآفاق، ولا آياته التي يؤيد بها رسله من علميات وكونيات، وأظهر آياته العلمية الباقية إلى آخر الزمان ما أودعه منها في كتابه القرآن المنزل على رسوله الأمي (ﷺ) كالعلوم الإلهية والتشريعية والأدبية والاجتماعية وأخبار الغيب الماضية والآتية."^(٢)

إن مخالفة السنن الإلهية ليس أمراً منحصراً في مخالفة الأفراد فحسب، بل إن هناك مخالفة كذلك للشعوب والأمم في هيتها الاجتماعية، وكلا نوعي المخالفة له آثاره الوخيمة.

"فالأفراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يمرضون، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها، وتضعف دولها، ويغير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في أنفسها."^(٣)

وحين كان رشيد رضا امتداداً لمدرسة المقاصد تلك المدرسة التي تجعل من أولى اهتمامتها وهي تتعامل مع الوحي الإلهي استنباط المقاصد العامة له فإن هذا النهج كان المظلة العامة التي انضوت تحتها رؤية رشيد رضا في مجال التجديد التربوي؛ حيث رأيناه يبين أن من مقاصد الوحي الإلهي مراعاة الفضائل واجتناب الرذائل.

(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا ص ١٧٦.

(٢) تفسير المنار ج ٩ ص ٣٥٤.

(٣) تفسير المنار ج ١١ ص ٢٥٠.

"من استقراء الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يُرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والصدق والأمانة والوفاء بالعهود والعقود والرحمة والمحبة والمواساة والبر والإحسان واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع."^(١)

إن اكتشاف القوانين العامة والقواعد الرئيسية لهو من أبرز ما تؤكد عليه فلسفة التربية الإسلامية بآلياتها المتنوعة والتي منها الحض على النظر في النفس واكتشاف أسرارها.

"والذي تريده فلسفة التربية الإسلامية من الحض على النظر في آيات الأنفس هو اكتشاف قوانين النفس والرسوخ في فهم هذه القوانين لإقناع الإنسان بأن مخالفة قوانين الله في الأنفس كمخالفة قوانينه في الكون."^(٢)

إن هذه القواعد الكلية هي الضمان الوحيد لتحقيق الهدف الذي تسعى إليه التربية الإسلامية؛ حيث إن "الهدف الذي تسعى إليه التربية - حسب فلسفة التربية الإسلامية - هو بلوغ المتعلم درجة الرقي الإنساني أو درجة أحسن تقويم حسب التعبير القرآني، ويبلغ الإنسان درجة الرقي حين تتشكل علاقاته بالخالق والكون والإنسان والحياة والآخرة."^(٣)

إن تعديد القواعد، وتأصيل الأصول، والوعي بالفارق بين الكليات والجزئيات كان من أبرز مرتكزات المشروع التجديدي لدى رشيد رضا، واتضح مما مر أن المجال التربوي كان له النصيب الأكبر في التطبيق العملي لهذا.



(١) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا ص ١٩٦.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني ص ٧٤.

(٣) المرجع السابق ص ٧٥.

المطلب الرابع إعطاء الملكتة النقدية محوريتها في التجديد التربوي

إن الناظر في تراثنا الإسلامي يجد أن هناك ركائز قد ضمنت له حيويته الممتدة عبر قرون متوالية، ويأتي النقد ليشكل إحدى أعظم هذه الركائز؛ حيث امتد إلى مختلف المجالات المعرفية، وكان ضماناً من ضمانات بقاء مشعل التجديد في المسيرة المعرفية للأمة.

إننا "نجد النقد معبراً عن الحركة لا السكون، معبراً عن التجديد لا التقليد".^(١) إن النقد إذا صحت منطقاته، وانضبطت مساراته يُعدُّ ركناً ركيناً في بنية الإصلاح الديني، فإذا كان الدكتور محمد البهي يقول مبيناً مفهوم هذا الإصلاح: "تعني بـ"الإصلاح الديني" في مجال الإسلام.

- محاولة رد الاعتبار للقيم الدينية، ورفع ما أثير حولها من شبه وشكوك قصد التخفيف من وزنها في نفوس المسلمين.

- ونعني به كذلك محاولة السير بالمبادئ الإسلامية. من نقطة الركود التي وقفت عندها في حياة المسلمين، إلى حياة المسلم المعاصر، حتى لا يقف مسلم اليوم موقف المتردد بين أمسه وحاضره عندما يصبح في غده.^(٢) إذا كانت هذه هي مفردات الإصلاح الديني فإن النقد سبيل لا غنى عنه في تحقيقها.

لقد كان المنحى النقدي علامة بارزة في مشروع رشيد رضا الفكري، دخل من خلاله غمار المساجلات الفكرية مع معاصريه خاصة وأن تلك المساجلات

(١) المنهج النقدي في فلسفة ابن رشد، د. عاطف العراقي، دار المعارف، ص ١٨ ط ٢ (١٩٨٤م).

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي ص ٣٢٩، مكتبة وهبه ط ١٠.

كانت طابعاً لعصره، ويكفي أن نطالع ما كتبه الأستاذ أنور الجندي عن تلك المساجلات في كتابه (المساجلات والمعارك الأدبية) لنعلم إلى أي حدّ كان اتساعها؛ حيث ذكر الجندي في هذا الكاب سبعاً وخمسين معركة اشترك فيها ثلاثة وثلاثون مُفكِّراً، طالت مجالات الفكر والتاريخ والحضارة؛ حتى قال: "ويمكن القول: إنه لا تُوجد قضية ذات بال مرّت في حياة الفكر العربي المعاصر إلا وقد احتوتها هذه المجموعة المتكاملة من المساجلات".^(١)

لقد توسع رشيد رضا في سؤال النقد حتى طال معظم مفردات الحياة التربوية في المجتمعات الشرقية عامة وفي المجتمع المصري خاصة، ولعلّ ما أسهم في تضخم هذا المنحى لديه ما سبقت الإشارة إليه من تردي الحالة الحضارية التي وصل إليها الشرق الإسلامي؛ حيث إن "الخط البياني الهابط للحضارة الإسلامية منذ أواخر العصر المملوكي والذي انتهى بالفتح العثماني أصاب الفكر التربوي بما يمكن وصفه بالسكتة الفكرية قياساً على هذا الذي يُوصَف بالسكتة الدماغية والسكتة القلبية، فقد توقف الاجتهاد التربوي في الغالب الأعم، وتحولت معظم الخطابات إعادةً وتكراراً لما سبق".^(٢)

لقد قام رشيد رضا بنقد التصور الكلي عن التربية لدى الشرقيين، ثم توجه بالنقد إلى أهداف التربية الغربية، ثم مناهج التربية التي كان يُعتمد عليها، ثم انتقد رشيد رضا المؤسسات التربوية الكبرى في الديار المصرية. ولو أردنا نماذج للملكة النقدية ودورها في التجديد التربوي لدى رشيد رضا فيمكن أن نتدبر التالي:

(١) المساجلات والمعارك الأدبية، أنور الجندي، ص ٤، مكتبة الآداب (٢٠٠٨م).

(٢) الإصلاح في الفكر التربوي، د. سعيد إسماعيل علي ص (١٥٤٢).

بيانه للعلاقة بين النقد والطبيعة البشرية

لقد انطلق رشيد رضا في رؤيته النقدية من وعي بالطبيعة البشرية وما ينتج عنها من أفكار وآراء.

يقول رشيد رضا: "الإنسان عرضة للخطأ والخلل، ولا يكاد يخلو عمل من خلل، وتشهد بذلك كتب المؤلفين، وأعمال المتقدمين والمتأخرين، (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)^(١)، يخطئ قوم فيصلح خطأهم آخرون، وبذلك تتجلى الحقائق، وتتمحص العلوم، حتى تبلغ كمالها."^(٢)

نقده لواقع اللغة العربية في مدارس التعليم

لقد كان من أبرز النقاط التي انتقدها رشيد رضا في واقعه التربوي ضعف الاهتمام باللغة العربية في المدارس، لذا قال وهو يتحدث عن عيوب التعليم:

العيب الأول: عدم اللغة:

إحياء العلم لا يكون إلا بلغة حية، ولغة الإسلام والمسلمين العربية، ولكنهم أهملوا تعلمها وتعليمها حتى إنني أقول ما قلته من قبل: إنني لا أعرف مدرسة، في الدنيا تُعلّم فيها اللغة العربية الصحيحة، ومن عنده حظٌّ من هذه اللغة فإنما تعلّمه، بنفسه؛ لاهتدائه إلى طريقة التعلم بذكائه أو بإرشاد مرشد آخر."^(٣)

ينبغي أن نقرأ هذا الكلام في سياقه الزمني حيث كانت هناك هجمات متوالية على اللغة العربية ومحاولات عدة لنزعها من هوية الأمة، ولا شك أن التعليم

(١) سورة النساء آية رقم (٨٢).

(٢) مجلة المنار، ج ١ ص ٢٣٦، (صفر - ١٣١٦هـ - يونيو - ١٨٩٨م)، مقال بعنوان: التنمية والسعاية.

(٣) مجلة المنار، ج ٢، ص ٣٣، (ذو القعدة - ١٣١٦هـ، مارس - ١٨٩٩م)، عنوان المقالة: تأثير العلم في العمل.

كان إحدى أبرز الوسائل المحققة لذلك، لهذا كان من الطبيعي أن يكون دفاع رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث عن اللغة العربية يحمل في الوقت ذاته نقداً للمناهج التعليمية التي تأثرت بالحركة التغريبية في ذلك الوقت، لذا رأينا الرافعي يطلق على حال اللغة العربية في زمانه (حالة العجمة)، تلك العجمة التي طرأت على الأمة، فأصابته بنية الاتصال بينها وبين الوحي الإلهي المتمثل في الكتاب والسنة:

يقول الرافعي: "وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ فرطوا في لغته، فأصبحوا لا يفهمون كلمه، ولا يدركون حكمه، ولا ينزعون أخلاقه وشيمه؛ وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانت شرّاً من العجمة الخالصة واللكنة الممزوجة، فلا يقرءون هذا الكتاب إلا أحرفاً، ولا ينطقون إلا أصواتاً."^(١)

لا شك أن وضع اللغة العربية ودورها الحالي في التركيبة الثقافية للأمة بل وحتى خطتها للنهوض الحضاري لا يليق إطلاقاً وثناء تلك اللغة التي ظلت تنير للمسلمين طريقهم الحضاري السابق مما حدا ببعض الباحثين أن يصف هذا الوضع الراهن بحصار اللغة؛ حيث بين أن وظائف اللغة هي ما يلي:

- ١- وسيلة تفكير الإنسان.
- ٢- الوسيلة الأساسية في التعبير.
- ٣- الوسيلة المحورية في التواصل بين الأفراد.
- ٤- الأداة الجوهرية القادرة على تقديم منهج متكامل لتفسير الواقع وظواهره، والفكر وأشكاله، والسلوك ودوافعه.

وبيّن الكاتب أن اللغة العربية في الواقع المعاصر لم تعد تؤدي هذه الأدوار.^(٢)

(١) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، ج٢ ص٧٠، دار الكتاب العربي بدون.

(٢) بحث: حصار العربية، د. علي أبو المكارم، بحث ضمن بحوث مؤتمر: اللغة العربية وتحديات العصر، ص ١٥، ١٦ كلية دار العلوم جامعة القاهرة (٢٠٠٨م).

نقده لاختلاف منابع التعليم وتوجهاته

إن الناظر إلى التاريخ التعليمي والتربوي للأمة الإسلامية يدرك أنه كان هناك تنوع لكنه لم يكن تنوعاً في المنابع والمنطلقات، بل كان تنوعاً في الوسائل والأساليب، غير أنه بمجيء العصر الحديث ووقوع أغلب العالم الإسلامي تحت برائن الاستعمار الغربي أضحى هذا التنوع تنوعاً جذرياً ممتداً حتى إلى الغايات والمقاصد.

وكان من الطبيعي ألا يغيب هذا الفارق عن رواد الإصلاح لفكرنا الإسلامي الحديث؛ لذا رأينا نقد هذا التنوع إحدى مجالات النقد التربوي والتعليمي لدى رشيد رضا.

يقول رشيد رضا: "العيب الثاني: في اختلاف منابع التعليم:

التعليم النافع هو ما يكون فيه قوام الأمة وترقيتها، والترقي إنما يكون بالرجال المتعلمين العلم النافع لها؛ لأن زمامها يكون في أيديهم، وقواد الأمة يجب أن يكونوا متفقيين في مقاصدهم الإصلاحية، وإنما يكون هذا الاتفاق والاتحاد إذا كانت تربية عقولهم وأفكارهم متحدة، ولن تكون متحدة إلا إذا كان التعليم من منبع واحد. والتعليم في بلادنا بعضه في مدارس الحكومة وبعضه في المدارس الأجنبية من فرنسوية وأميركانية وإنكليزية وإسرائيلية، وليس منه شيء موافق لحاجة الأمة، ومنطبق على مصلحتها، فإن لكل صنف من هذه الأصناف مقصداً من التعليم."^(١)

(١) مجلة المنار، المحرم، ج ٥٧٢، (١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م) (عنوان المقالة: التعليم الذي ترتقي به الأمة).

نقده للانفصال بين كل من التربية والتعليم

لقد سبقت الإشارة إلى مدى الارتباط بين كل من التربية والتعليم في الرؤية الإسلامية؛ لذا كان ظهور الانفصال بينهما في المؤسسات المعنية بالتعليم مجالاً من المجالات التي تطرق إليها النقد التربوي لرشيد رضا.

يقول رشيد رضا: "التعليم لا يفيد النجاح المطلوب للأمة إلا إذا كان مقارناً للتربية المليئة القومية، وهذه التربية مفقودة عندنا؛ لأن القائمين على أمر التعليم لا يهتمهم أمرها." (١)

نقده لأهداف التربية المادية المحضّة.

وحيث كان رشيد رضا يؤكد على أهمية التنبيه لأهداف التربية الإسلامية فإنه في الوقت ذاته كان ينقد أهداف التربية المادية المحضّة التي لا تأخذ في الاعتبار المكون الروحي للإنسان.

يقول رشيد رضا: "ومن العبرة في الآية أن الماديين من البشر يعدون الرحمة ضعفاً في النفس تجب مقاومته بالتعليم والتربية أي بإفساد الفطرة الإلهية التي أودع فيها الرب الرحيم جزءاً من مائة جزء من رحمته يتراحم بها خلقه ويتعاطفون، وقاعدة التربية المادية أن أمور الحياة كلها تجارة يقصد بها الربح العاجل." (٢)

نقد النظريات التربوية الغربية

وحيث سادت نظرية التميز العرقي للغرب تلك النظرية التي تأثرت بطبيعة العلاقة بين الشرق والغرب والتي أريد لها أن تكون بمثابة الحقيقة المقررة كان لا بد وأن يكون لها نصيب من المنحى النقدي لرشيد رضا.

(١) مجلة المنار، المحرم، ج ٥ ص ٧٢، (١٣٢٠هـ، ١٩٠٢م) (عنوان المقالة: التعليم الذي

ترتقي به الأمة).

(٢) تفسير المنار ج ٨ ص ٤١١.

يقول رشيد رضا: "إن شعوب البشر متقاربة في الاستعداد للكمال الإنساني، وإننا معاشر الشرقيين عامة، والمسلمين خاصة، ما سبقتنا الأمم التي نراها الآن أعلى منا إلى العلوم والحضارة؛ لأن استعدادنا الفطري دون استعدادها، فعليكم أن تفكروا دائماً في استعدادكم، وأن تستعملوه في طلب الكمال لأنفسكم وأمتكم، وأنتم قادرون على ذلك."^(١)

وبيّن رشيد رضا العلة الحقيقية وراء هذا التوجه الفكري لهذه الفئة وهي التضارب في الرؤية الحضارية لكل من الأمة الإسلامية والغرب. "هذا ما أوقع أكثر المفكرين في هاوية اليأس، وقطع بهم أسباب الرجاء، نظروا إلى أوروبا في نهايتها، وإلى أهل بلادهم في بدايتهم (على أنهم لم يبدعوا بعمل، وهذه البداية مفروضة)، فقالوا: لا يبلغ الظالع شأؤ الضليع."^(٢) ولم ير رشيد رضا أية تعارض بين التأكيد على الذاتية الإسلامية كمنطلق حتمي من منطلقات الفكر التربوي وبين ضرورة الاستفادة المنضبطة من الفكر التربوي الغربي.

"جرت الأمم القوية في التربية والتعليم على طرق لا مندوحة لنا عن محاكاتها فيها ومجاراتها عليها كمّاً وكيفاً، مع اعتبار حالة بلادنا الدينية

(١) مجلة المنار، ج ١٥ ص ٥٦٧، عدد شعبان (١٣٣٠هـ)، أغسطس (١٩١٢م) عنوان المقالة: التربية ووجه الحاجة إليها وتقاسيمها..

(٢) مجلة المنار ج ١ ص ٣١ (عدد شوال ١٣١٥هـ — فبراير ١٩٩٨م) عنوان المقالة: محاوراة في سعادة الأمة.

والاجتماعية، ومراعاة مقدرتنا المالية والعلمية، لأننا نعلم أن عزة تلك الدول وتقدمها على نسبة تقدم التربية والتعليم فيها." (1)

لم يكن المقصد هنا استقصاء كل صور النقد التي قام بها رشيد رضا في المجال التربوي، بل كان المقصد بيان محورية النقد لديه، وإعطاء نماذج تطبيقية له، وقد اتضح مما ذكرناه كيف أن النقد كان مرتبطاً لدى رشيد رضا بالطبيعة البشرية، وكيف أنه تطرق من خلاله إلى ما ارتأه خارجاً عن مقاصد التربية الإسلامية المستوحاة من نصوص الوحي الإلهي.



(1) مجلة المنار، مجلد 1 ص 278، (صفر - 1316هـ) (يوليو - 1898م)، عنوان المقالة: إلى أي تعليم وتربية نحن أحوج؟.

المطلب الخامس التأكيد على منحى التربية العملية

إننا هنا أمام حقيقتين لا بد من البدء بهما، وهما:

الحقيقة الأولى: وضوح المنحى العملي التطبيقي في أصولنا المعرفية وتطبيقاتها الحضارية إبان نهضتنا.

الحقيقة الثانية: كان من مظاهر الارتكاس الحضاري الردة عن تنبئ هذا المنحى، وانحسار الدائرة المعرفية في النظر العقلي وحده.

وإذا جئنا إلى الرؤية الإسلامية فسنجد أنها قد كشفت عن الارتباط الوثيق بين كل من النظر العقلي المجرد والمنحى العملي التجريبي؛ لذا فحين نتدبر النصوص القرآنية نجد أنها تذكر المصدرين في إطار من التكامل، "ويدل عليه تعقيب الله على ذكر آياته في الآفاق وفي الأنفس مما يدركه الإنسان بحواسه بألفاظ مثل: يعقلون، يتفكرون، ونحوها."^(١)

لقد كان التنبيه على أهمية التربية العملية إحدى المعالم الرئيسية للتجديد التربوي الذي تبناه رشيد رضا، وقد ابتدأ هذا التنبيه ببيان ضعف هذا الجانب العملي في المناهج التعليمية للعالم الإسلامي إبان العصور المتأخرة.

"فقد كانت البلاد طوال قرون تكاد أن تكون خالية تماما من تعليم يتعلق بالصناعات والفنون التطبيقية، وكان العلم فقط هو ما يتعلق بالنظر. وحده."^(٢) والكارثة أن هذا الأمر ساد حتى لدى أولئك الذين تبناوا ثقافة تغريبية، وكانهم غفلوا أو تغفأوا عن أن من أعظم أسباب النهضة العلمية الغربية تنبئها للمنحى

(١) مجلة المنار، مجلد ٤٩٧، (صفر - ١٣١٦هـ) (يوليو - ١٨٩٨م)، عنوان

المقالة: إلى أي تعليم وتربية نحن أحوج؟.

(٢) الإصلاح في الفكر التربوي، د. سعيد إسماعيل علي ص ١٥٥٧.

العملي وثورتها على الفكر الأرسطي المجرد الذي لم يكن المتحمسون له يعنون عناية تُذكر بأي من مناهج المعرفة سوى المنهج القياسي العقلي البحث. "وإذا كنا نلاحظ على الفكر الذي ساد وحكم حركة تأسيس الجامعة المصرية القديمة عام (١٩٠٨م)، والذي مال إلى ما كان يُسمّى (العلم للعلم)، ومعاداة (تمهين التعليم) واستهدافه بالتالي أن يهيئ الأبناء لأن يمارسوا أعمالاً بعينها ووظائف معينة... فإن مفكرنا (أي رشيد رضا) يسعى إلى أن يكون مُتسِّقاً مع فلسفة التربية الإسلامية التي يعبر عنها استعادة الرسول (ﷺ) من علم لا ينفع." (١)(٢)

لقد انطلق رشيد رضا إذاً من المنهج الإسلامي الذي يجعل من الفكر مطيبة للعمل، ومن الاعتبار باباً للإعمار، فوجدناه يؤكد على هذه المعاني متسلحاً في ذلك بما ذكره المتخصصون في التربية، فيقول:

"و غاية ما انتهى إليه الباحثون في فنّ التعليم أن الأعمال هي التي تطبع ملكات العلم والعمل في النفوس، وأن المسائل العلمية التي تعرض على العقول من طريق السمع مرة أو مرات لا تكاد تثبت، وإذا ثبت بعضها فإنما يكون كآلة موجودة في بيت رجل لا يُحسن استعمالها، بخلاف ما إذا عرضت المعلومات بأعيانها أو أمثلتها عند الكلام عليها، وكُلّف المتعلم أن يستعمل علمه ويطبّقه على المعلومات." (٣)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ك: الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ج ٨ ص ٨١، رقم (٧٠٨١)، (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ)، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) الإصلاح في الفكر التربوي، د. سعيد إسماعيل علي ص ١٥٨٣.

(٣) مجلة المنار، (ذو القعدة - ١٣١٦هـ) (مارس - ١٨٩٩م) ج (٢) ص (٢٥)، عنوان

المقالة: التعليم بالعمل.

وبين كذلك أن التربية العملية هي سرُّ تَرْقِيَّ الأمم المُنْزِقِيَّة، فقال:
"لأُمِّ المرتقِيَّة لم تُعَدُّ تُعْتَبَرُ نِجَاحُ التَّعْلِيمِ بِبِرَاعَةِ التَّلَامُذَةِ فِي الامْتِحَانِ، بَلْ
إِنَّمَا نَسْمَعُ كُلَّ يَوْمٍ صِيَاحَ المُنْتَقِدِينَ مِنْ عُلَمَاءِ البِيدَاوِجِيَا (التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَّةِ)
قَائِلِينَ:

"إِنْ جَعَلُ النِّجَاحُ فِي الامْتِحَانِ وَأَخَذَ شَهَادَةُ العَالَمِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا هُوَ الغَايَةُ مِنْ
التَّعْلِيمِ الَّتِي تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ نَفُوسُ المَتَعَلِّمِينَ - خَطَأً عَظِيمًا، وَضَرَرَهُ عَلَى البِلَادِ
جَسِيمًا؛ لِأَنَّهُ يُجْهِدُ العَقْلَ فِيمَا لَا يَعودُ بِالفَائِدَةِ عَلَى البِلَادِ، وَإِنَّمَا غَايَةُ التَّعْلِيمِ
إِنْتِاجُ رِجَالٍ قَادِرِينَ عَلَى الأَعْمَالِ النَّافِعَةِ وَمِبَارَاةِ الأُمَمِ الحَيَّةِ، وَمَسَابِقَتِهَا فِي
مِيدَانِ الحَيَاةِ، وَحَقٌّ مَا قَالُوا، وَالعِبْرَةُ أَمَامَنَا." (١)

وَفَرَّقَ رَشِيدُ رِضَا بَيْنَ الوُجُودِ الظَّاهِرِيِّ لِلْعِلْمِ كَمَعْلُومٍ وَبَيْنَ العِلْمِ المُرْتَبِطِ
بِالخِبْرَةِ العَمَلِيَّةِ، فَقَالَ: "إِنْ وَجُودُ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي العِلْمَ بِهِ، وَلَوْ بَوَجهِ مَا،
فَكَيْفَ يَقْتَضِي كَمَالَ العِلْمِ وَالحِكمَةَ بِالوُصُولِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لثَمَرَتِهِ، وَالإِشْرَافِ
مِنْ كُلِّ مَبْدَأٍ عَلَى غَايَتِهِ؟

هَذَا لَا يُهْتَدَى إِلَيْهِ إِلَّا بِكَمَالِ التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَّةِ عَلَى العَمَلِ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ." (٢)

وَقَدْ ارْتَأَى رَشِيدُ رِضَا أَنَّ العِلَاقَةَ بَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ عِلَاقَةٌ تَبَادُلِيَّةٌ بِمَعْنَى أَنَّ
العِلْمَ الَّذِي اسْتَوْفَى مَفْهُومَهُ وَشُرُوطَهُ هُوَ العِلْمُ القَادِرُ عَلَى إِنْتِاجِ العَمَلِ الصَّحِيحِ
كَمَا أَنَّ العَمَلِ الصَّحِيحِ دَلَالَةٌ عَلَى تَمَكُّنِ العِلْمِ مِنْ صَاحِبِهِ.

(١) مجلة المنار، (غرة صفر - ١٣١٨هـ - ٢٩ مايو - ١٩٠٠م ج ٣ - ص ١٩٨) عنوان
المقالة: التعليم النافع).

(٢) مجلة المنار (صفر - ١٣١٦هـ)، (يوليو - ١٨٩٨م) ج ١ - ص ٢٨٧) عنوان المقالة:
إلى أي تعليم وتربية نحن أحوج).

"العقل والنقل متفقان على أن العلم الصحيح السالم من الشوائب والعلل هو الباعث لإرادة الإنسان على تحريك الأعضاء للعمل. فيصح أن يستدل بأعمال الأفراد وأعمال الأمم على مكانتها من العلوم بوجوده منافعها ومصلحتها وما عندها من الفنون التي يزيد العمل بها إتقاناً وارتقاءً. ومعلوم أن سعادة الأمم بأعمالها، وأعمالها لا ترتقي في مدارج الكمال إلا بالاتفاق والتعاون، والاتفاق والتعاون لا يأتیان إلا من تهذيب الأخلاق وتقويم العادات وتصحيح العقائد التي يُبنى عليها الترغيب والترهيب اللذان يقودان إلى التهذيب."^(١)

إنهما دائرتان لا ينبغي أن تنفصلا:

دائرة المعرفة المستمدة من أنوار الوحي الإلهي.

ودائرة التزكية العملية التي تنمو وتطرح ثمارها سلوكاً راشداً.

إن هاتين الدائرتين نجدهما متلازمتين في الوحي الإلهي، وقد ضرب لنا رشيد رضا نماذج عدة على هذا التلازم، ومن هذه النماذج ما جاء في قوله تعالى: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)^(٢).

يقول رشيد رضا: "وبعد ذكر التربية العملية بالأسوة الحسنة ذكر أمر التعليم فقال: (ويعلمكم الكتاب والحكمة) أي الكتاب الإلهي أو الكتابة التي تخرجون بها من ظلمة الأمية والجهل إلى نور العلم والحضارة."^(٣)

(١) مجلة المنار، (ذو القعدة - ١٣١٦هـ) (مارس - ١٨٩٩م)، ج ٢، ص ٣٣ (عنوان

المقالة: تأثير العلم في العمل).

(٢) سورة البقرة آية رقم (١٥١).

(٣) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٤.

لقد كانت هذه نقطة فارقة في المشروع التربوي لرشيد رضا، وكان دائم التأكيد عليها بكل أسلوب أمكنه؛ لذا وجدناه يبين أن المفارقة الحقيقية بين العلم واللغو لا تخرج عن هذا الإطار

"كل علم لا يهدي إلى طرق الحياة السعيدة فهو لغو، وأجدر به أن يُسمَّى جهلاً، والمشتغلون بهذا اللغو أو الجهل كثيرون، بل هم الذين جعلوا العلوم والفنون المرشدة إلى الأعمال النافعة لغوًا؛ إذ لا يوجد علم لا يهدي إلى عمل نافع للإنسان؛ فالعلم إما بيان للعمل اللساني أو العضوي أو القلبي، وإما ركن تستند إليه الهداية كعلم العقائد، ولكن هؤلاء خرجوا بالعلم في التعليم والتأليف عن كونه مرشدًا هاديًا يبعث الآخذ به ويزعجه إلى ما هداه إليه وجعلوه مقصودًا لذاته. جعلوه عالمًا مستقلًا لا مندوحة لمن يشرف عليه عن الانفصال عن العالم الوجودي. وعندما ينفصل عن العالم الوجودي يمكنه أن يتصل بذلك العالم الخيالي (الذي يسمونه العلم)، ويشاهد بعض ما فيه من العجائب التي يتأتى له بها أن يحكم على بعض الجزئيات في عالم الوجود بالصحة أو الخطأ إن هي عرضت له." (١)

وقد بين رشيد رضا أن وقائع الحياة على اختلافها تصلح سبيلًا للتربية العملية الذاتية للإنسان لكن بشرط أن يتلقى هذه الأحداث بقلب متبصر وعقل منتهب وسلوك مرضي.

يقول رشيد رضا: "المصيبة في الدنيا إنما تكون كفارة في الآخرة إذا أثرت في تركية النفس تأثيرًا صالحًا وكانت سببًا لقوة الإيمان أو ترك السوء والتوبة منه لظهور ضرره في الدين أو الدنيا، أو الرغبة في عمل صالح بما تحدثه من

(١) مجلة المنار (ذو القعدة - ١٣١٦هـ) (إبريل - ١٨٩٩م) ج ٢ ص ٥٦، عنوان

المقالة: اختيار المتعلمين.

العبرة، ومن شأن المؤمن المهتدي بكتاب الله تعالى أن يستفيد من المصائب والنوائب فتكون مربية لعقله ونفسه." (١)

ولقد بين رشيد رضا أن المنهج القرآني كان يخاطب من أعرض عن أنواره بحتمية النظر من جديد في ضروب التربية التي أثرت في مخزونهم الفكري، والنظر كذلك في أحوال الخلق حاضرا وماضيا.

لقد كان من مفردات المنهج القرآني: "إحالة المخاطبين إلى غرائزهم وفطرتهم، وتذكيرهم بتأثير التربية التقليدية في أنفسهم ومناشئ عروض الشبهات لأذهانهم، وإلزامهم الحجة بمحاسبة عقولهم لأنفسهم على تعارض الأفكار وتناقض الأقوال بسبب اختلاف الأوقات والأحوال ومخالفة التقاليد والمسلمات للغرائز والملكات، ويتلو هذا الأسلوب إحالتهم على مثال ذلك في غيرهم من الناس بالنظر في أحوال المعاصرين والاعتبار بسير الغابرين، فأياته تعالى في الأنفس أقوى من آياته في غيرها." (٢)

ولم يكن تأكيد رشيد رضا على أهمية التربية العملية مرتبطا فحسب بالواقع الحياتي بل إنه بيّن ارتباطها الوثيق بالحياة الأخرى والجزاء الإلهي على العمل. يقول رشيد رضا: "وقد علم مما ذكرناه من تركية النفس، وتدسييتها بعمل الإنسان وكسبه الاختياري، أن الجزء في الآخرة أثر لازم للتركيبية والتدسية، مرتب عليهما ترتب المسبب على المسبب، والمعلول على العلة، بفضل الله وحكمته، ومقتضى سنته في خلقه." (٣)

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٥٥.

(٢) المرجع السابق ج ٨ ص ٢٤١.

(٣) تفسير المنار، ج ٥ ص ٣٥٥.

إن أصول التربية العملية أمر اتفقت عليه جميع رسالات الله تعالى وإن
اختلفت طرقها ومسالكها الفرعية
"الشرائع العملية وطرق التركيز الأدبية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع
واستعداد البشر؛ وإنما اتفق جميع الرسل في أصل الدين، وهو توحيد الله
وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان".^(١)
إذاً لقد كان رشيد رضا واحداً من هؤلاء الذين أسسوا لمفهوم التربية العملية،
هذا المفهوم الذي لم يكن غريباً عن منظومتنا المعرفية وتراثنا التربوي وإن
كان يصاغ في عصرنا هذا بمصطلحات أخرى.



(١) تفسير المنار، ج ٦ ص ٣٤٢.

المطلب السادس

ضرورة المكون التاريخي في تشكيل الرؤية التربوية

لا يمكن المتدبر للمشروع الفكري لرشيد رضا أن يُخطئ مدى تجذر المكون التاريخي في هذا المشروع، ولا نقصد هنا أن التاريخ قد شكّل موضوعاً من موضوعات فكره، بل نقصد أنه مثل مصدرًا من مصادر المعرفة لديه. وقد كان من مفردات الحضور التاريخي في الرؤية التربوية وعيه بالمراحل التربوية في تاريخ الأمم، لذا يقول:

"إذا تأملتَ في تاريخ هذا الإنسان رأيت أبنائه قد وقع منهم الاختلاف في كل شيء {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} (١) اختلفوا في العقائد والمذاهب، والعادات والمشارب، وجرى هذا الخلاف منهم في مُدْرَكَاتِ الحسِّ، كما سرى في مدارك العقل، ألا ترى أن بعضهم لا يستطيع أكل اللحم ذوقًا، كما أن بعضهم يستبجها عقلاً، أما سمعتَ أن منهم مَنْ أنكر مظاهر الوجود وحقائق الأشياء زعمًا أنها خيالات وأوهام تتراءى للحواس ولا تحقّق لها في نفسها، ومن رام حصر مواد الاختلاف والافتراق بين الأمم والشعوب. وبين الأحاد والأشخاص فقد رام عبثًا، وحاول شططًا، وفيما أشرنا إليه من النموذج بلاغ لقوم يفقهون." (٢)

إذاً أبان رشيد رضا أن من أبرز معطيات الوعي التاريخي إدراك الاختلاف الإنساني متعدد المشارب متنوع المظاهر.

(١) سورة هود. آيتا رقم (١١٨-١١٩).

(٢) مجلة المنار (ذو القعدة ١٣١٥هـ) مارس (١٨٩٨م) ج١، ص٦٩ - (تبصرة وذكرى

لقوم يعقلون. في بيان أن سعادة الأمة في التهذيب).

إنه ليس اختلافا ظاهريا في الأشكال والألوان، بل إنه اختلاف نفذ إلى الاعتقادات القلبية والمدركات العقلية.

إنه الاختلاف الذي امتد حتى إلى حقائق الأشياء وكنه وجودها. وانتقل رشيد رضا من مجرد التأمل للتاريخ إلى جعله شاهدا على رؤيته التربوية.

"التهذيب روح للوجود الطبيعي والمدني والسياسي، تتال به هذه الوجودات سعادة الحياة وحياة السعادة، شهد بذلك التاريخ الصحيح وصدقته العقل السليم."^(١) "واتخذ رشيد رضا من الوعي التاريخي حتمية في الإصلاح التربوي للأمم؛ حيث يجب أن تعرف مراحلها الزمنية ومتطلبات كل مرحلة. "مطالبة الأمة في طور من أطوار الحياة بالصنائع التي تناسب طوراً أعلى منه، إعجاز وإعانت."^(٢)

وكشف رشيد رضا أن المنهج القرآني في تربيته للصحابة (ﷺ) وللأمة من بعدهم جعل من تأمل الوقائع والأحداث الماضية وسيلة من وسائل التربية العملية.

يقول رشيد رضا: "ويصح أن يكون هذا النهي إنشاءً بمعنى الخبر أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنا لأمركم ومضعفا لكم في عملكم ولا موجبا لحزنكم وانكسار قلوبكم، فإنه لم يكن نصرا تاما للمشركين عليكم وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم (ﷺ) في تدبيره الحربي المحكم وفشلكم وتنازعكم في الأمر، وذلك خروج عن سنة

(١) مجلة المنار (ذو القعدة ١٣١٥هـ) مارس (١٨٩٨م) ج ١ ص ٦٩ - (تبصرة وذكرى لقوم يعقلون في بيان أن سعادة الأمة في التهذيب).

(٢) مجلة المنار (شوال - ١٣١٦هـ) (فبراير - ١٨٩٩م) ج ١، ص ٩٠١ (عنوان المقالة: الصنائع والتربية والتعليم).

الله في أسباب الظفر، وبهذه التربية تكونون أحقاء بالألأ تعودوا إلى مثل تلك الذنوب، فتكون التربية خيرا لكم من عدمها." (١)

إن رشيد رضا كان ينطلق من رؤية تكاملية بين علمي التاريخ والتربية تأسيسا لرؤية تكاملية أكبر بين العلوم الإنسانية.

إن هذا التكامل يفتح آفاقا من اتساق هذه العلوم مع المكونات الإنسانية المختلفة.



الخاتمة

- ١- تنوعت بواعث التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا، وكان من أبرزها الحاجة الإنسانية الملحة للمنهج التربوي الإسلامي بعدما لم تفلح النظريات التربوية الغربية في تحقيق المواءمة مع المكونات المختلفة للإنسان.
- ٢- كان من بواعث التجديد التربوي لدى رشيد رضا إكمال مسيرة الفكر التربوي الإسلامي، تلك المسيرة التي أنتجت تراثا تربويا مثل علامة فارقة في الفكر التربوي الإنساني.
- ٣- كان التجديد التربوي لرشيد رضا منطلقا من المنهج الإسلامي وتأصيلاته الموثقة في دواوين الوحي الإلهي من الكتاب والسنة، ولم يكن هذا التجديد إلا ثمرة من ثمار نظرات تدبرية ثاقبة في هذا الوحي.
- ٤- كان للملكة النقدية محوريته في المشروع التربوي التجديدي لرشيد رضا، استطاع من خلالها رشيد رضا نقد كل من الواقع التربوي في البلاد الإسلامية ومنطلقات النظريات التربوية الغربية.
- ٥- لم يتعامل رشيد رضا مع المكون التاريخي على أنه مجرد إطار زمني للأحداث بل إنه مثل لديه ركنا ركينا في تراكم الخبرات التربوية، ورافدا أصيلا من روافد التربية العملية.
- ٦- رغم أهمية التربية النظرية إلا أن للتربية العملية مكانتها في أي بناء تربوي، وهذا كان إحدى أسس التجديد التربوي لرشيد رضا.
- ٧- لم تكن رؤية رشيد رضا لقضية التربية وآلياتها بعيدة عن نظرته الكلية للأمة وقضاياها، بل رأينا معالجاته التربوية تنسم بأنها تتحدث عن الأمم في شكلها الجمعي.

٨- كذب الادعاءات التي تزعم عدم صلاحية المنهج التربوي الإسلامي لمعالجة المستجدات التربوية في الواقع الإنساني، وقد كشف رشيد رضا عن منهج تربوي إسلامي رصين سواء فيما يتعلق بالبعد المفاهيمي أو في الأصول والأسس.

٩- في الوقت الذي انطلق فيه رشيد رضا من الوحي الإلهي فإنه لم يغلق الباب أمام المعارف الإنسانية لأن الانفتاح المنضبط على هذه المعارف مما دعا إليه الوحي الإلهي.



المصادر والمراجع

- أثر الخصوصية العربية في المجتمعية الإسلامية. رفيق العجم دار الفكر اللبناني، بيروت. ط ١ (١٩٩٣م).
- أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، عبد الكريم غلاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط ١ (١٩٩٨م).
- الإسلام والحضارة الإنسانية. عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر، بدون.
- الإصلاح في الفكر التربوي، د: سعيد إسماعيل علي، ضمن أعمال مؤتمر اتجاهات التجديد والإصلاح في الفكر الإسلامي الحديث، والذي نظمته مكتبة الإسكندرية في الفترة من ٢٣-٢٥) المحرم (١٤٣٠) ١٩-٢٠ يناير (٢٠٠٩).
- أصول الحرب العالمية الثانية، أ. ج. ب تايلور، ترجمة: مصطفى كمال خميس، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧١م).
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، د. محمد عمارة، مكتبة الأسرة (٢٠٠٨م)
- أهم اختراعات واكتشافات القرن العشرين د: حاتم صدقي، المكتبة الأكاديمية (٢٠٠٧).
- تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده، محمد رشيد رضا، دار الفضيلة، ط ٢ (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
- تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) د: محمد متولي، دار الثقافة ط ١ (١٩٧٧م).
- تجديد الفكر الديني في الإسلام، محمد إقبال، مكتبة الاسكندرية (٢٠١١م).
- التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، عالم الكتب (١٤٢٥ - ٢٠٠٥م).
- التربية والتعليم في الإسلام، محمد نصر أطلس، مؤسسة هنداوي.

- الحرب العالمية الثانية، رمضان لاوند، دار العلم للملايين. بيروت، ط ١٤ (١٩٩٢م).
- الحرب العالمية الثانية، ومصائر شعوب آسيا وإفريقيا، (ديمتري يفيموف)، دار الموقف العربي بدون.
- دراسات في التربية، التربية في الإسلام، د. أحمد فؤاد الأهواني دار المعارف.
- دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق سورية، ط ١ (١٤١٢هـ) - (١٩٩١م).
- رشيد رضا الإمام المجاهد، أحمد إبراهيم العدوي، سلسلة أعلام العرب، الدار المصرية العامة للتأليف والترجمة.
- رفاة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث. د: محمد عماره، دار الشروق ط ٣ (٢٠٠٧م).
- السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، شكيب أرسلان، مكتبة ابن زيدون، ط ١ (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م)
- علم النفس الإسلامي العام والتربوي، دراسة مقارنة، محمد رشاد خليل، دار القلم، ط ١ (١٩٩١م).
- فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية، د: عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).
- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د: محمد البهي، مكتبة وهبة ط ١٠.
- فلسفة التربية الإسلامية الكيلاني، دراسة مقارنة بين فلسفة التربية الإسلامية والفلسفات التربوية المعاصرة، د: ماجد عرسان الكيلاني، دار المنارة، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

- فلسفة العلم في القرن العشرين، د: يمنى طريف الخولي، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٩).
- في الفقه الحضاري، حول منهج جديد لدراسة حضارة الإسلام، د: عماد الدين خليل، كلية التربية جامعة الموصل، بدون.
- كيف صنعنا القرن العشرين، روجيه جارودي، ترجمة: ليلي حافظ، دار الشروق ط٢ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- المساجلات والمعارك الأدبية، أنور الجندي، مكتبة الآداب (٢٠٠٨م).
- معالم تاريخ الإنسانية، تأليف: هـ. ج. ولز، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة كتب عربية، بدون.
- مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، على أحمد مدكور، دار الفكر العربي، (١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤٤٣	المقدمة
٤٤٨	التمهيد
٤٤٨	مفهوم التجديد التربوي
٤٥٤	تعريف موجز بالشيخ: محمد رشيد رضا
٤٥٩	المبحث الأول: بواعث التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا
٤٥٩	المطلب الأول: الحاجة الإنسانية للمنهج التربوي الإسلامي
٤٦٦	المطلب الثاني علاج انحسار التكوين التربوي للشخصية المسلمة
٤٧٢	المطلب الثالث: إكمال مسيرة البحث في الإصلاح التربوي الإسلامي
٤٧٨	المبحث الثاني: مرتكزات التجديد التربوي لدى محمد رشيد رضا
٤٧٨	المطلب الأول: الانطلاق من الرؤية الإسلامية التربوية
٤٨٩	المطلب الثاني: تبني بنية مفاهيمية واضحة
٤٩٩	المطلب الثالث: تبني النظرة القاعدية
٥٠٥	المطلب الرابع: إعطاء الملكة النقدية محوريتها في التجديد التربوي
٥١٣	المطلب الخامس: التأكيد على منحى التربية العملية
٥٢٠	المطلب السادس: ضرورة المكون التاريخي في تشكيل الرؤية التربوية
٥٢٣	الخاتمة
٥٢٥	المصادر والمراجع
٥٢٨	فهرس الموضوعات